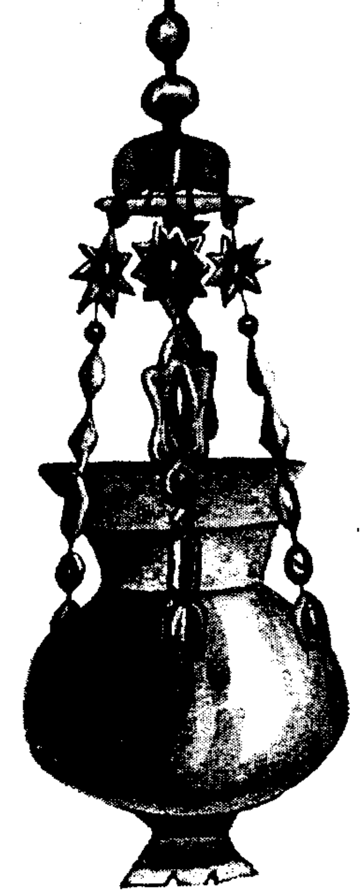
في التنوير الإسلامي ٤



دراسة قرآنية في فقه التجدد الحضاري

د. سيد دسوقي حسن



العنوان: دراسة قرآنية فى فقه التجدد الحضارى.

المؤلف: د. سيد دسوقى حسن.

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم .

تاريخ النشر: الطبعة الثانية سبتمبر 2005م .

رقم الإيداع: 2003/ 16497

الترقيم الدولى: ISBN 977-14-3195-1

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة
ت: 3466434(02)–3472864 (02) فاكس:3462576 (02) ص.ب:21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmisr.com

المطابع:80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) - فاكس: 8330296 (02)
البريد الإلكترونى للمطابع: press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسى: 18 ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة - ص . ب : 96 الفجالة - القاهرة.
ت : 5909827 (02) - 5908895 (02) - فاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجانى: 08002226222
البريد الإلكترونى لإدارة البيع: sales @nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)
ت: 5462090 (03)

مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com

نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ صدق الله العظيم

ذكرت هذه الآية وأنا أقرأ عرضًا فى «مجلة قضايا دولية» للكاتب السياسى الأمريكى الشهير برجنسكى مستشار الأمن القومى للرئيس كارتر والذى جعل له عنوان :

«**خارج حدود السيطرة**» (OUT OF CONTROL) .

لقد استطاع هذا النذير أن يحلل الأوضاع فى الحضارة الغربية ، ثم يركز على المجتمع الأمريكى كعنوان صارخ لهذه الحضارة ، وينفذ بصدق وذكاء إلى أعمق الأعماق فى مشاكل هذه الحضارة . إنه يتحدث عن مجتمع « **إباحية الوفرة** » ويعنى بها حالة المجتمع الذى يُسمح فيه بكل شىء ويمكن الحصول فيه على كل شىء وهو مجتمع انحط مستواه الأخلاقى وانصب جهد الإنسان فيه على تلبية رغباته وإرضاء شهواته . .

وفى رأيه أن هذه الحالة تنشأ من عاملين : أولهما الوفرة المادية عند قطاع من الناس . وثانيهما الشعور بعدم الامتلاك الكامل لهذه الوفرة عند القطاع الأكبر من الناس ، مما يحثهم إلى التدافع فى طلب هذه الوفرة ومحاولة امتلاكها بكل السبل .

إن عالم إباحية الوفرة عالم اختلت فيه موازين الأخلاق وموازين الخير والشر وتم استبدالهما بموازين من صنع البشر «قانونية

أو غير قانونية» . وفى مثل هذا العالم تم إقصاء القيم الدينية الداخلة فى ضمير الفرد ووضعت وكأنها قوانين وقواعد خارجية تنفذها أجهزة الشرطة والأجهزة القانونية ؛ وهى أجهزة قاصرة أن تحيط الإنسان بسياج أخلاقى قادر على أن يكف يده عن الحرام .

ومن عِلل عالم إباحية الوفرة اختلال مفهومى «الحرية» و «الحياة الطيبة» .حيث يصبح مفهوم الحرية إطلاق العنان لشهوات الأفراد دون التقيد بالمسئوليات العامة وخير المجتمع . أما مفهوم الحياة الطيبة فيعنى فى مثل هذا المجتمع . . طلب اللذة والمتعة الحسية عن طريق التكاثر . فالوفرة غاية فى حد ذاتها .

وأمريكا التى هى عنوان هذه الحضارة تقدم للعالم رسالة نشاز . . إنها رسالة تحرص على المحافظة على دورها القيادى فى العالم رغم مشكلاتها المتفاقمة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والروحية .

وفى مجال المشاكل الروحية ؛ يركز برجنسكى على ما يعانيه أبناء هذه الحضارة من فراغ روحى رهيب نتيجة الاصطدام بطوفان المادية الغالب عليهم .

ويركز الرجل على أن أهم المشاكل وأكثرها استعصاء على الحل هي المشاكل الروحية والاجتماعية . وهى تهدد النموذج الحضارى الأمريكى من الأساس . ويرى أنه ينبغى أن تقوم أمريكا بمراجعة كاملة وعملية نقد صارم للفلسفة المادية التى تقوم عليها حضارتها . . كما أنه على أمريكا أن تصل إلى قناعة بأن المجتمع الذى لا يمتلك قيمًا وثوابت مطلقة والذى يقوم على فلسفة تحقيق

المتعة الذاتية وإرضاء النزوات هو مجتمع محكوم عليه بالانهيار والذوبان .

ويهيب برجنسكى بأمريكا أن تفقه دروس التاريخ فى إزدهار الحضارات وانهيارها وفى مدها وجذرها فيقول :- إن التاريخ يعلمنا أنه لابد لأية قوة عظمى - لكى تحافظ على دور الريادة - من رسالة حضارية تقوم على فضائل الأخلاق وتكون نموذجًا يحتذى من الآخرين طوعًا لا كرهًا ، وفى غياب هذه الرسالة الحضارية فإن النموذج الأمريكى سوف يُرفض كما رُفض النموذج الشيوعى السوفيتى من قبل .

هل تصل صيحة هذا النذير الأمريكى لقومه ؟ وهل يسمعون ؟ وإذا سمعوا .. هل يرجعون ؟

فى هذه الرسالة نحاول أن نفهم آليات التجديد من وجهة فهمنا نصوص القرآن التى تبدو لنا واصفة .. وصفًا حكيمًا جامعًا أحوال المجتمعات فى تقلباتها المختلفة ، وواضعة أسس الانطلاق والتجديد لمن أراد .

وإنما استهللنا بحديث عن كتاب النذير الأمريكى برجنسكى حتى يعلم الذين يريدوننا قردة خاسئين نحذوا حذو الحضارة الأمريكية حذو النعل بالنعل ويتصايحون علينا باسم التنوير .. حتى يعلموا أنهم يدعوننا إلى الخسران المبين ، خاصة أنهم يدعوننا إلى تقليد المرض فى هذه الحضارة .. أما تتبع الخير فى هذه الحضارة - وإن فيها لخيرًا كثيرًا - فلسنا فى حاجة إلى هذا الصياح المنكر لمن سمّوا أنفسهم دعاة التنوير .. ذلك لأن هذا

الأمر - تتبع الخير فى حضارات الدنيا - أمر لم يختلف عليه عقلاء الأمة فى القديم والحديث .. ولا يحتجون علينا بقول جاهل مريض .. ذلك لأن إجماع الأمة منذ أن كانت هو تتبع الخير فى كل حضارة .. أخذًا بنظم راشدة واستخدامًا لتكنولوچيات نافعة وبحثًا عن علم يفيد العباد والبلاد .

وبعد ؛ فبين يدى القارئ بحث فى ماهية الحضارة وآفاتها وآليات تجديدها ، أدعو الله أن أكون قد وفقت سواء السبيل .

سيد دسوقي حسن

القاهرة فى ٢١ / ٤ / ١٩٩٤ م

ماهية الحضارة: الروح والتمدين

إن الحضارة عالمان: عالم الروح وعالم المادة ◆

وفى البدء تتمثل الحضارة فى عالم الروح . ويتجسد عالم الروح فى مجموعة من القيم والمبادئ العظيمة تسكن نفوسًا كبيرة لقوم كبار .

ثم تبدأ التغذية الطبعية من عالم الروح لعالم المادة حيث يحاول المجتمع الوليد أن يبنى مؤسسات يقيم بها أود حياته المادية . . مؤسسات سياسية واجتماعية واقتصادية . وهو يستعين على ذلك بأدوات العصر التى نشأت هنا وهناك . يستوعبها ويغربلها ويطهرها ثم يستخدمها مع التغذية الروحية لبناء عالم المادة . ومن شأن هذه التغذية الروحية أن تضعف عالم الروح على حساب تقوية عالم المادة إذا لم ننتبه إلى ذلك ، وغالبًا ما تغفل الشعوب عن ذلك .

وخير لنا فى بدء هذه الدراسة أن نحدد الألفاظ ما استطعنا . . فمثلاً سنستخدم كلمة «حضارة» لتعنى النمو الكامل فى عالم الروح وعالم المادة . وسنستخدم كلمة التمدين لتعنى نمو عالم المادة .

وقد يستخدم غيرنا هذه الألفاظ لغير ذلك . فهى ألفاظ مائعة فى الاستخدام الأدبى والفلسفى . . وحسبنا هنا أننا حددنا منطلقاتها العامة .

والأمر القاصم للحضارة أن يستنزف عالم الروح رويدًا رويدًا من غير أن يجدد وتعمل أجهزة الحضارة على تجديده .

وفى كثير من الأحيان تتحول الطاقة الروحية الضخمة المتوفرة فى لحظات الفجر إلى طاقة مادية من غير تجديد لهذه الطاقة والعمل على بقائها . هنا تتحول الحضارة إلى تمدين ، وتعمل سنن الحياة على سحق هذا التمدين الذى لا يملك معه قوة روحية تعمل على بقائه وتجديده .

والتاريخ . . حتى الآن . . يعلمنا أن تحول عالم الروح إلى عالم المادة فى أغلب الأحوال تَحول غير عكسى . أو على الأقل لم يكتشف حتى الآن وسائل حضارية تجعله غير ذلك . والمنحنى الحضارى الشائع والمعروف بالدورة الحضارية يُظهر ذلك بجلاء .

ومن الغريب . . ونحن نبحث عن مخرج حضارى الآن . . خلطنا الأمور خلطًا مبينًا . فظننا مثلاً أن الأحكام فى الفقه والشريعة هى من عالم الروح . ونسينا أنها من عالم المادة ، بل هى جزء من التمدين الإسلامى القديم استعان بأدوات عصره القديمة والتى كانت شائعة بين يديه .

ويبدو أن هناك علاقات وقوانين تحكم حركة عالم الروح وعالم المادة ، كشقين للحضارة . وواضح أن عالم الروح ينشأ أولاً وهو يُنشئ تمدينًا خاصًا للرجال الذين يحملونها ولكنه تمدين فى إطار التمدين العام السائد فى المنطقة التى يعيش فيها الرجال الذين يعيش فيهم عالم الروح . ومن ثم فتظل « روح » هذا التمدين الخاص هى التى يجب أن تستلهم وليست أشكال التمدين هى التى يجب أن تقتفى ، فلم يكن طعامهم اختراعًا جديدًا ولم تكن

مساكنهم ذات تصميم معمارى مخالف . . لقد كانوا متحضرين فى ظل التمدين السائد . وهكذا تظل المهمة فى كل جيل هو التحضر فى ظل تمدين سائد . ومن ثم تكون **هناك مهمتان** :

الانبعاث الروحى، التمدين أى أن المسلم المعاصر لا يستطيع . . وقد تحضرت روحه بأخلاق الإسلام وأشواقه . . أن يزعم لنفسه أنه يستطيع أن يكتفى وأن يتبنى أشكال التمدين فى قرون ماضيات . . أشكالاً فى الزى والمأوى والتعليم والمؤسسات المختلفة . . إن أى محاولة من هذا النوع ستنتهى إلى الفشل المحقق . وسيغزوها عالم التمدن من كل جوانبه ويمحوها محوًا .

وعالم الروح يتمثل فى مجموع العقائد والقيم والموازين التى تستكن فى أفئدة نفوس عظيمة تترجم هذه القيم والعقائد والموازين إلى نماذج حية تسعى بين الناس وتعطيهم الأسوة الحسنة وتقيم عليهم الحجة أن بشرًا مثلكم يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق قد تخلقوا بهذه القيم واستكنت فى أنفسهم هذه العقائد وترجموا هذا كله إلى سلوك متميز . ومجموع العقائد والقيم والموازين هو ما أسميته فى كثير من كتاباتى « عالم الغيب » .

وعالم الغيب يتمحور حول ما يسميه القرآن الكريم « الغيب » . فالغيب يمثل جوهر العقيدة ، ثم تنشأ عن هذا الجوهر مجموعة من القيم والموازين مع هذا الغيب وهى فى حد ذاتها بدهيات لابد من الإيمان بها . فأنت تستطيع أن تخترع لنفسك ولجماعتك مجموعة من القيم البدهية . ولكن سوف ينشأ سؤالان عند كل فرد : لماذا

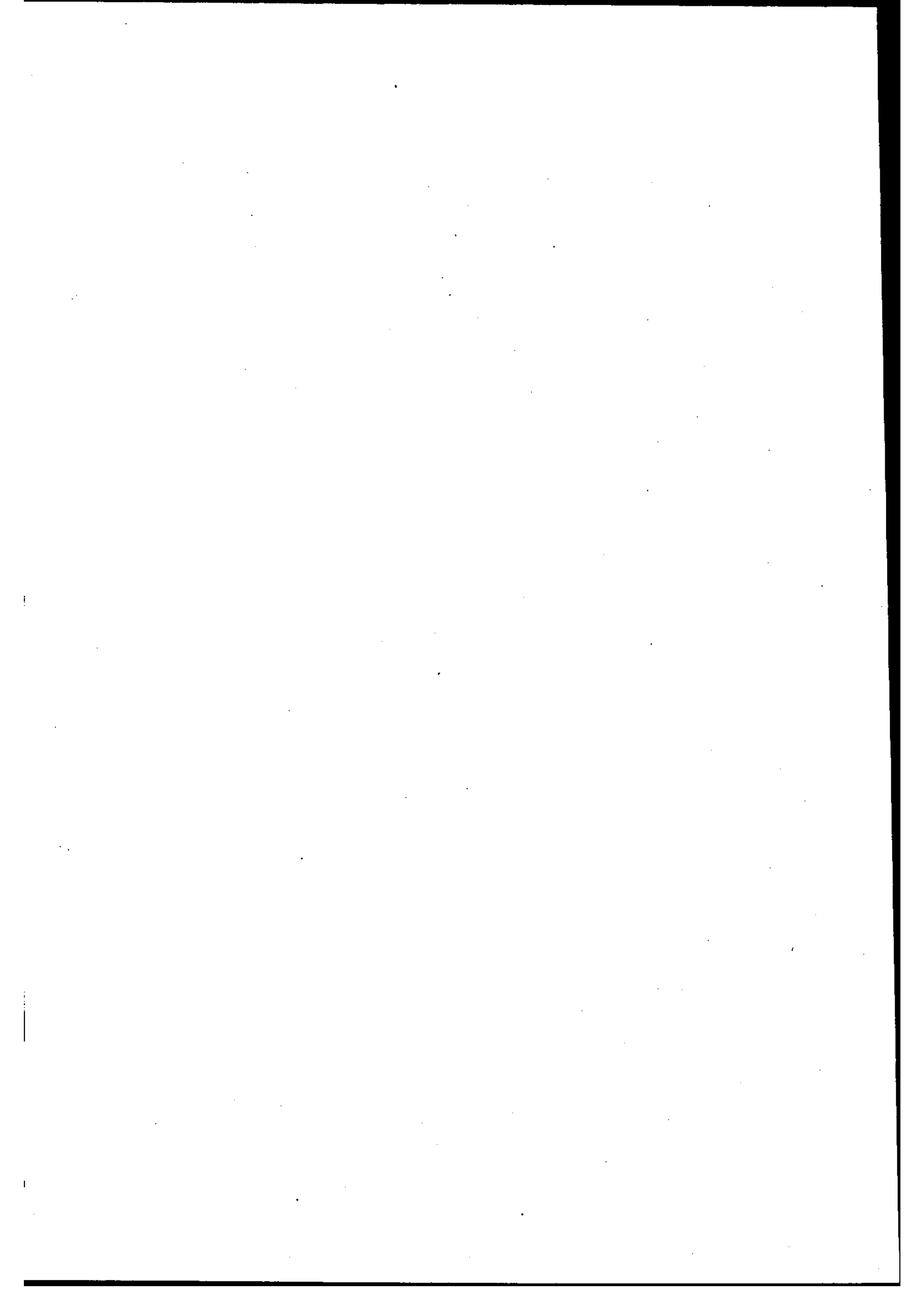
التزم بها ؟ وما هو جزاء الالتزام بها أو تركه ؟ . . وتتعدد الإجابة على هذين السؤالين في الفلسفات والعقائد المختلفة ، ففى الفلسفات المادية تتركز الإجابة فى فكرة المصلحة الدنيوية والجزاء الدنيوى . بينما فى الإسلام - الرسالات السماوية منذ آدم حتى محمد عليهما السلام - تأتى الإجابة من خلال الفلاح فى الدنيا والآخرة . فهناك إله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وهناك آخرة وبعث ونشور ، وهناك حساب وجنة ونار ، وهناك ملائكة يكتبون ما تفعلون . والله سبحانه وتعالى هو صاحب الخلق وصاحب الأمر ، وهو سبحانهُ أعلم بما يأمر به عباده من تكاليف هى من أجل فلاحهم فى الدنيا والآخرة . وفكرة المصلحة الدنيوية يمكن أن تعمل فى مناخ الوفرة المادية ، ولكنها تذهب وتزول إذا حاصرت أصحابها ظروف حياتية قاسية ، وكل الذى نراه من جشع وظلم وقسوة ووحشية فى تصرف الغربيين مع غيرهم إنما هو ناتج عن وضعية أخلاقهم وعدم إيمانهم برب رازق غنى ، فهم مستعدون أن يحرقوا العالم من أجل البترول والمواد الخام فى بلدان المستضعفين ، وهم يشعلون الحرب هنا وهناك حتى تتوتر الشعوب وتجمع أموالها من أجل شراء أسلحة من هذا الغرب وحتى لاتتوقف مصانع السلاح عن العمل .

أى أن « الغيب » القرآنى يمثل . . بالنسبة لما أسميته . . عالم الغيب نوعًا من الجدوى الربانية يلزم الناس به ، ويحرضهم على التمسك بأوامره ، ويبشرهم بالجزاء الأوفى فى الدنيا والآخرة .

وأعود فأقول إن روح الحضارة ليست فحسب عالم غيب نظرى يكتبه فيلسوف فى كتاب . وإنما هى الأمثلة الحية من الرجال الذين استكن فى أنفسهم عالم الغيب وترجموه إلى سلوكيات عظيمة تظل دائمًا هى الثريات التى يتطلع إليها الناس يقلدونها ولا يكادون يفعلون .

وإذا فهمنا هذا أدركنا حجم الجريمة التاريخية التى ارتكبها نفر من أحبار اليهود فى تلمودهم وفيما حرفوا من التوراة . حيث هدموا كل مثال وحطموا كل قدوة وأظهروا أنبياء الله ورسله فى شكل القتلة الزناة المنحرفين . وكذلك نستطيع أن نفهم هذه الحملات الضارية على الصحابة والتابعين والتى يشنها أعداء البعث الإسلامى حتى تضيع القدوة وتذهب الأسوة .

ونوجز فنقول إنه فى ساعات الفجر ، عندما تولد الحضارات ينبغى أن يتكاثر الرجال الذين يحملون الفكرة صافية من غير غبش ، مترجمين لها إلى واقع حى يمشى على الأرض ، ورحم الله أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عندما سُئلت عن خُلُق المصطفى قالت : « **كان خُلقهُ القرآن** » .



آليات التجديد الحضارى فى الحضارة الغربية

كما قلنا من قبل إن الحضارات تتحول من عالم الروح إلى عالم المادة ويحيط بها تمدينها ويفقدها بصيرتها الروحية رويدًا رويدًا .

وكما يرين على قلب الإنسان ما اكتسب من سيئات فإن سيئات الحضارات تتراكم فى طريقها وتخنقها ، اللهم إلا إذا استطاع علماء الأمة أن ينتبهوا مبكرًا ويعالجوا الأمور ويجددوا من شباب الحضارة من خلال بث جديد لنفس القيم التى صنعت الحضارة أول مرة . وعلماء الاجتماع يتحدثون دائمًا عن الدورات الحضارية . فللحضارة ميلاد وطفولة وشباب وشيخوخة وموت .

والميلاد دائمًا يشير إلى تجسد الحضارة فى مجموعة من العقائد والقيم تحملها أفئدة الرجال أى إلى فترة الروح . أما الطفولة والشباب والشيخوخة فهى تشير إلى نمو التمدين حتى يصل إلى قمته فى الشباب وتأخذ الحياة المادية بتلابيب المجتمعات بعد ذلك فيفقدون الروح الدافقة ويستسلمون للترف المهلك إستسلامًا لايستطيعون معهُ العودة إلي الينابيع الأولى للحياة الطيبة ، فتبدأ الشيخوخة ويدب الموت فى الجسد العفى حتى يهلكهُ تمامًا وصدق الله العظيم القائل : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) ﴾ [الإسراء:١٦] .

ولعل هذا ما يعنيه برجنسكى من إباحية الوفرة فى المجتمع الأمريكى حيث تتمتع قلة مترفة بكل شىء دون قيد أخلاقى ، بينما تتطلع الأغلبية المحرومة إلى هذا الترف كهدف حياتى (انظر المقدمة) .

وربما انبثقت الحضارة من عالم غيب ربانى ، فإذا نَمت وترعرعت وأنتجت من كل زوج بهيج بدأت تنسى عالم غيبها الطيب وتتخذ عالم غيب يحافظ على سيئاتها ويراكمها بطريقة قارون ، إنّ قارون كان من قوم موسى ولم يكن من قوم فرعون ولكن عندما تضخمت ثروته نسى ما تعلمه فى مدرسة موسى وأصبح من آل فرعون . وعالم الغيب الذى نمت منه الحضارة الغربية فى القرون الوسطى كان مزيجًا من المسيحية المعدلة بالتأثير الإسلامى على يد الإصلاحيين من أمثال مارتن لوثر . ولكن سرعان ما تحول هذا الغيب رويدًا رويدًا إلى ستة أفكار منبتة الصلة بالسماء :

١ - فكرة «التطور» صور عليا للحياة تتطور من صور دنيا بطريقة طبيعية وذاتية ، ولا يقتصر هذا التطور على الماديات بل يشمل كل المعنويات مثل اللغة والدين والقيم .

٢ - فكرة « التنافس » والاختيار الطبيعى والبقاء للأنسب وهى فكرة تؤيد وتدعم فكرة التطور وحدوثه بطريقة طبيعية وذاتية ، ولقد آلت فكرة البقاء للأنسب إلى فكرة البقاء للأقوى .

٣ - فكرة « ماركس » فى صراع الطبقات وأن كل المظاهر العليا للحياة مثل الدين والفن والفلسفة ما هى إلا مجموعة أوهام فى عقول الرجال تخفى وراءها مآرب اقتصادية .

٤ - فكرة « **فرويد** » التى تفسر كل المظاهر العليا فى الحياة كنتيجة لما ترسب فى العقل الباطن من رغبات مكبوتة فى سن الطفولة والمراهقة لإتيان المحارم .

٥ - فكرة « **النسبية** » منكرة كل مطلق .. هادمة كل المقاييس والمعايير .

٦ - فكرة « **الوضعية** » التى تقول :- إنّ المعرفة الحقة يمكن الحصول عليها بطرق العلوم الطبيعية ، وعلى هذا لا يمكن تبادل المعرفة إلا إذا كانت قائمة على حقائق المشاهدة وحدها (راجع كتابنا «مقدمات فى البعث الحضارى» ، دار القلم ٨٧) .

إن هذه الأفكار الستة تمثل العقل الباطن للحضارة الغربية ، ولقد أحاطت بالإنسان الغربى حتى أنهُ لا يستطيع أن يتفلت منها إلا بعملية إحياء شديدة القسوة .

فأمَّنْ هذا من الغربيين الذى يغلق مصانع الأسلحة ؟! وأمَّنْ هذا الذى يستطيع أن ينادى بالمحافظة على البيئة بالحد من عمليات التصنيع فى الغرب ؟!

وأمَّنْ هذا الذى يريد أن يحافظ على الأرض الزراعية ويعود إلي الزراعة التقليدية وينسى المبيدات الحشرية والسماد الكيماوى والتى تهلك الأرض وتفقدها خصوبتها رويدًا رويدًا ؟!

وأمَّنْ هذا الذى يريد أن يقيم القسط فى الأرض فيمنع الغرب من نهب الثروات الطبيعية فى بلدان العالم المستضعف ؟!

إن الحضارة الغربية قد وصلت إلى الحالة التى يصفها القرآن بقوله : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣) ﴾ [القلم: ٤٢، ٤٣] صحيح أن كثيرًا من عقلاء الغربيين قد تنبهوا لكثير من الأمراض ، ولكنهم لايملكون القدرة على تغيير الناس حتى يقبلوا أنماطًا من الحياة أقرب إلى التناغم مع بقية الخلق ومع بقية البيئة .

إن الحضارة الغربية تعيش اليوم شبابها اليوم فى عالم التمدين . ولكنها فقدت . . كما قلنا . . عالم غيبها المسيحى واستبدلته بعالم غيب طاغوتى مُنبت الصلة بالسماء . فمن هذا إذن الذى سيجدد للغرب حضارته ويعيد إليه قدرته الحضارية التى ابتدأ بها مسيرته فى القرون الوسطى ؟

الولايات المتحدة وبعض بلدان أوروبا يحاولون الحفاظ على قوة التمدين الذى يملكونه بمجموعة من الآليات :

١ – آلية التهجين الاجتماعى .

٢ – آلية قوة القانون ومكانة القضاء .

٣ – آلية النظام الشورى .

٤ – آلية التنمية غير المركزية .

٥ – آلية الاستعمار .

الآلية الأولى:

ففى الآلية الأولى «آلية التهجين الاجتماعى» تسمح هذه البلدان بهجرة العقول المتميزة ، حيث تتفانى هذه العقول فى إثبات وجودها في الأرض الجديدة وتدعم التقدم بعبقريتها وتعوض ما أصاب الأمة من وَهَن نتيجة خلود المواطنين إلى الدّعةَ والترف .

وعندما أزور زملائى الذين بقوا فى أمريكا ولم يعودوا إلى أوطانهم أراهم كأعواد قصب ممصوصة أعطوا كل عصيرهم الحضارى لأمريكا ولم يبقى لأنفسهم من أنفسهم إلا بيوت خاوية على عروشها وأولاد أكلهم الذئب الاجتماعى وزوجات يشعرن بفراغ رهيب رهيب ، وزمن مرير يزحف على حياتهم فيملأها فراغًا على فراغ .

إن عملية التهجين الاجتماعى تجدد شباب التمدين ولكنها لا تستطيع أن تعيد الروح إلى الحضارة ؛ تلك الروح العظيمة التى تبدأ بها الحضارات تنفسها فى ساعات الفجر .

وبالطبع لا تستطيع الدول أن تستخدم عملية التهجين هذه وتعتمد عليها بصفة مستمرة ، خاصة أنها تغير من النسيج الاجتماعى الذى ربما حرصت عليه هذه الدول . وكذلك فإنهُ فى ساعات الانقباض الاقتصادى الذى هو من الظواهر الطبيعية فى الاقتصاد الرأسمالى ، يمكن أن نشاهد صراعًا بين المواطنين والمهاجرين كما يحدث الآن فى أوروبا . . والتى بدأت تضيق بالملايين التى ساعدتها فى ساعات العسر . . وأصبحنا نسمع صيحات عنصرية اختفت من قبل فى ساعات اليسر .

أما الآلية الثانية :

آلية قوة القانون ومكانة القضاء :

هى آلية عظيمة من آليات الحضارة الغربية حيث طورت هذه البلدان من نظامها القضائى وحرصت على جعله نظامًا قويًا فعالاً ، لا يسئ إلى هذا النظام العظيم إلا أمـران ، الأمـر الأول :- مـا أصاب المجتمع كله من وهن قد أصاب القضاة والعاملين فى السلك القضائى . ولسنا هنا نشير إلى عمليات رشوة أو فساد أخلاقى ولكن نشير إلى أن المجتمع كله قد أصابه إنحراف فى القيم .

طوال الصيف الماضى وأنا فى كاليفورنيا أستمع فى التلفاز إلى قضايا غريبة وأحكام أغرب ، أسرتان تتنازعان طفلاً ، هذا أب حقيقى وهذا أب بيولوچى . . والأب البيولوچى هل كان برضا الأب الرسمى أم لا ؟ وغير ذلك من القضايا التى يموج بها مجتمع لم تعد له قيم سائدة ، ومن هذا المجتمع قضاته الذين يحكمون بالهوى ومحلفون يحكمون بالهوى . . أى أن النظام القضائى رغم مكانته سوف يفقد فعاليته بعد قليل . . إذ يكفى أن تسأل ما هو العدل الذى ينبغى أن يحققه النظام القضائى الذى يقوم عليه قضاة ومحلفون ليست لديهم مرجعية أخلاقية عليا ؟

والأمر الثانى :

هو أن النظام القضائى مرتبط ارتباطًا تامًا بأجهزة الشرطة ، ولقد سمعت حوارًا فى التلفاز الأمريكى بين مذيع ومتخصص فى شئون الشرطة فى الصحافة الأمريكية ورئيس شرطة نيويورك

الأسبق ، وكانت نتيجة الحوار أن جهاز الشرطة فى أمريكا كلها فاسد فاسد ، ولا حل إلا الإجهاز عليه وتبديله بجهاز يعمل فيه مواطنون شرفاء ، وبالطبع قالوا :- إن ذلك مستحيل . ومعنى ذلك بقاء الأمر على ما هو عليه .

إنك فى بلد كمصر آمن ألف مرة على حياتك وعلى مالك وعلى أسرتك منك فى أى بلد فى أمريكا أو أوروبا خاصة إن الصحوة الدينية تتدفق فى أجهزة القضاء وأجهزة الأمن المنوط بهما حراسة الأمن ، فيقتربان من الرشد رويدًا رويدًا .

والآلية الثالثة :◆

هى «آلية النظم الشورية» عندهم :- وهى ولا جدال .. من أعظم الآليات فى الحضارة الغربية .. المشاركة العظيمة للأُمة فى صنع القرار ، والقدرة على مراقبة الأجهزة التنفيذية من خلال مجالس نيابية عظيمة .

ونحن وإن كنا مأمورين عقيديًا أن نبدع نظمًا شورية فإننا قد نفذنا ذلك على مستوى الفكر التشريعى الفقهى ، ولكننا لم نفعل بنفس الدرجة على مستوى السياسة والحكم ، وعندما أنشأنا حديثًا برلمانات على غرار أوروبا .. أخذنا الشكل وتركنا الجوهر .

وعلى كل حال ، فإن الحياة الشورية فى أمريكا وأوروبا الآن رغم ما تحتفظ به من قوة إلا أن الطوفان بدأ يحيط بها من جوانب عدة . ويكفى أن تعرف أن محترفى السياسة فى هذه البلدان لا يستطيع

أحدهم أن ينفق على حملة الانتخاب إلا إذا ساعدته إحدى القوى السياسية أو الاجتماعية ومن ثم فشراء الذمم أصبح أمرًا سهلاً فى بلد لا يؤمن إلا بقوة المادة .

إن الطريقة التى يختار بها الغرب - ونختار نحن كذلك بنفس الطريقة - أعضاء المجالس النيابية سياسيين محترفين أمر يحتاج إلى مراجعة وربما - كما كان فى تاريخنا - يمكن أن نعود إلى فكرة مجلس «أهل . . .» الحل والعقد ومجلس «أهل . . .» الاجتهاد . أما أهل الإجتهاد فيفتون كما يشاءون ويضعون بين يدى أهل الحل والعقد مجموعة من الاحتمالات أو الاجتهادات يأخذون منها ما يصلح للواقع (يراجع فى هذا الأمر كتاب أستاذنا الدكتور توفيق الشاوى « فقه الشورى والاستشارة ») .

ومرة أخرى نؤكد أن ضعف عالم الروح فى الحضارة الغربية سوف يضعف لا محالة عالم التمدين حتى تصبح المؤسسات التي كانت تعمل بالأمس خاوية على عروشها .

الآلية الرابعة :

هى «آلية التنمية غير المركزية» وأحسب أن هذه الآلية تقوم بحفظ التمدين وتقدمه أكثر من كل الآليات السابقة ، وهى آلية إسلامية أيضًا وسنتكلم عنها بإذن الله عندما نتحدث عن آليات التجديد في الحضارة الإسلامية . ولعلنا نلاحظ أن التنمية المركزية في البلاد الشيوعية أسرعت بنهاية هذا الجزء من العالم الغربى بسرعة مذهلة .

والحقيقة أن عاملاً آخر من عوامل التنمية اللامركزية يمسك بقوة التمدين فى الولايات المتحدة ألا وهو قوة المال المغامر الذى يتقدم ليخترق المجهول فى عالم التقنية وينفق عليه بسخاء عظيم . أعرف شركة يعمل فيها صهرى أنفقت فى مدى خمس سنوات قرابة ٢٥٠ مليون دولار على بحوث تتصل بعمل مرشحات للدم تفصل منه الخلايا الخبيثة ، وحتى اليوم لم تنجح الشركة فى الوصول إلى منتج تجارى ، ورغم ذلك ما زالت قنوات المال المغامر تنفق على هذه الشركة .

والآلية الخامسة :

هى الاستعمار وأدواته المختلفة من نظام عالمى وهيئات دولية على رأسها الأمم المتحدة والبنك الدولى وما حولها من منظمات تعمل كلها فى خدمة الاستعمار .

ها هى شعوب المستضعفين تعيش تحت رهبة ما يسمى بالنظام العالمى مضغوطة سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا واقتصاديًا ، وسلاح هذا النظام هو تشجيع الأنظمة على الفساد ودعمها على الطغيان ومساندتها فى حرب شعوبها حتى تفقد النظم دعم الشعوب وترتكن إلى النظام العالمى ، حتى إذا شاخت وفقدت بهاءها وسيطرتها استبدلتها بعناصر أخرى تلعب معها نفس اللعبة ، وفى نفس الوقت الذى يحرس فيه هذا - النظام العالمى هذه الأنظمة الشمولية - يعمل من وراء ستار على تأجيج نار الفرقة فى الشعوب وينخر فى كيانات الشعوب عن طريق الإفساد الاقتصادى

الاجتماعى خاصة إفساد الأجهزة المنوط بها محاربة الفساد ، حتى يأتى وقت لا تستطيع الأمة فيه أن تجمع شتات نفسها ، وما مثال الصومال عنا ببعيد ، وبذلك تظل بلادنا مفتوحة للنهب والسلب تحت اسم اتفاقيات ظالمة وعقود مجرمة ويتحول كل الخير إليهم يقوون به تمدينهم ويشدون بهذا أزر حضارتهم .

فى هذا الصيف همت دولة عربية بشراء صفقة من الطائرات الأوروبية فرأينا رئيس أمريكا يتدخل شخصيًا عند هذه الدولة ويطلب تحويل هذه الصفقة إلى أمريكا . بالطبع لكل دولة نصيب فى النظام الدولى حسب قوتها ، وتوزيع الغنائم من بلاد المستضعفين يتم حسب القدرة والقوة في المشاركة فى النظام العالمى . إنهم مجتمعون على قلب شيطان واحد ويود كل امرئ منهم أن ينفرد بالغنائم وحده .

لابد أن نميز بين موقف الأمة من الحضارة الغربية وبين موقفها من الاستعمار الغربى حيث أن الضباب الذى يحيط بين الاثنين يثير كثيرًا من الإشكاليات فى الجو الثقافى فى الأمة . فالتيار العام فى الأمة منفتح على أى خير فى هذه الحضارة سواء كان هذا الخير في النظم الحياتية التى ابتدعتها هذه الحضارة أم فى عالم أشيائها أو فى علومها الباسقات .

والحق أنه فى هذه الميادين التى تعبر عن الشق التمدينى فى الحضارة الغربية أصبحت هذه الحضارة ذات تمدين عالمى . حيث يشارك كل علماء العالم فى صناعة هذا التمدين ، علماء من الشمال وعلماء من الجنوب وعلماء من الشرق وعلماء من الغرب . ولو أخذت ميدانًا من ميادين العلوم أو التكنولوچيا وأحصيت الذين يسهمون فى رفعتها لوجدت أسماء من كل لون وجنس .

فموقف الأمة فى مجموعه من التمدين الغربى موقف إيجابى ، كما كان من قبل موقف الأمة من الاستفادة من بقايا التمدين في الحضارات السابقة على الحضارة الإسلامية فى العصور الماضية .

وكما قلنا من قبل :- إن جميع الحضارات تنطلق فى إعمار الأرض من عوالم غيب مختلفة ، وعالم الغيب كما أسلفنا هو جماع العقائد والقيم والأشواق والبدهيات المستكنة فى أفئدة

الناس ، ورغم اختلاف عوالم الغيب من حضارة إلى حضارة ، إلا أن جميعها لا بد أن تتفق على حث الإنسان لإعمار الأرض ، وإلا لما قام تمدين وما اكتملت حضارة . أما منهج الحث فليس من الضرورة أن يكون متطابقًا بين الحضارات .

كما أن هدف الإعمار وطبيعته سوف يختلف بالضرورة بين حضارات تقوم على اختلاف عوالم غيبها .

هذه التعددية الفكرية هى من غيبيات التفكير الإسلامى فى القرآن الكريم :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ... (119) ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]

ويشير الزمخشرى فى تفسيره كلمة «ولذلك خلقهم» يُشير إلى حرية الاختيار الإنسانى وقدرة الإنسان على الاختلاف الفعلى مع غيره من الناس .

والآية تشير . . فى رأينا . . إلى نوعين من الاختلاف : اختلاف تضاد . واختلاف تكامل . أما اختلاف التضاد ، فيحدث نتيجة لعدم الفهم أو الهوى أو قلة العلم ، ومثل هذا الاختلاف إن لم يزل بالحوار والجدال بالتى هى أحسن فإنه يؤدى بالضرورة . . إلى الشقاق ويسعر نار الفتنة ، ولذلك تشير الآية إلى هؤلاء الذين «ما يزالون» مختلفين اختلاف تضاد أنهم يفتقدون الرحمة .

أما اختلاف التكامل فهو تجميع الأفهام لجوانب متعددة من القضية المطروحة ، بحيث يكتمل الفهم وتتضح الرؤى الكاملة .

ففى عقائدنا إذاً أن النمو الثقافى والعلمى إنما بإطلاق حرية البحث ، وسوف تختلف النتائج وتتضاد أحيانًا ، وأحيانًا أخرى تتكامل وتترابط وموقفنا دائمًا هو موقف الشافعى : «رأيى صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب» .

قلنا فى مقدمة هذه الملاحظات إنّ تفاعل الحضارات يختلط فى كثير من الأحيان بالرغبة فى العلو فى الأرض والإفساد ، ومن ثم فبدلاً من حرية الدعوة إلى روح الحضارة ، تسيطر على الحضارات الرغبة فى إضعاف حضارة لحساب سيطرة حضارات أخرى من أجل العلو والإفساد .

إن التفاعل المثمر يبدأ من حرية الدعوة إلى القيم النبيلة وتقديم العون الإنسانى فى مجالات الحياة والإيمان بالتعددية الحضارية والإتفاق على القدر الضرورى من الحماية لحقوق الإنسان والحفاظ على البيئة . ولعل ما وصلت إليه الحضارة الغربية من صدام مفزع مع البيئة وعدم قدرتها على النكوص والأوب ، ومحاولتها تحميل شعوب الحضارات الأخرى نتائج سفهها وإفسادها فى مجالات البيئة ليس إلا ظلمًا لهذه الشعوب التى سوف تتحمل الأمراض والأوبئة الناتجة عن دفن المخلفات الصناعية وتلويث البر والبحر . إنها جريمة الحضارة الغربية الكبرى التى لم تظهر آثارها الكلية بعد .

وانظر إلى آداب التفاعل بين الحضارات فى الإسلام ، فهناك أمر بهذا التفاعل فى قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ... (١٣) ﴾ [الحجرات: ١٣]

فالتعاون هنا ميزانه التقوى ، ومن ثم كل تعامل ينبغى أن ينبنى على التقوى . والله أيضًا يقول لعباده :

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) ﴾ [القصص: ٨٣]

أى أن التفاعل الحضارى واجب قرآني من أجل أن يتعارف الناس ليتكاملوا ، ولكن هذا التعارف والتكامل يحكمه الإيمان بالتعددية وتحكمه التقوى ويحكمه الأمر بغياب روح الهيمنة والعلو والإفساد .

كما أننا نؤمن أيضًا بقانون الاتزان الدينامكى للقوى الحضارية ، فلا يمكن أن يترك الحق تبارك وتعالى العالم فى يد قوة باغية واحدة ، وحتى لو بدا ذلك كما هو حادث الآن فإن هذه فترات قصيرة ، بضع سنين :

﴿ الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) ﴾ [الروم: ١ - ٤]

ولعل قصة ذى القرنين فى سورة الكهف تصف ما ينبغى أن يكون عليه التفاعل بين الحضارة الإسلامية وبين بقية الخلق .. أقوياء كانوا أم ضعفاء .

يقول الله تعالى فى سورة الكهف :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا

قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ [الكهف: ٨٣ - ٩٨]

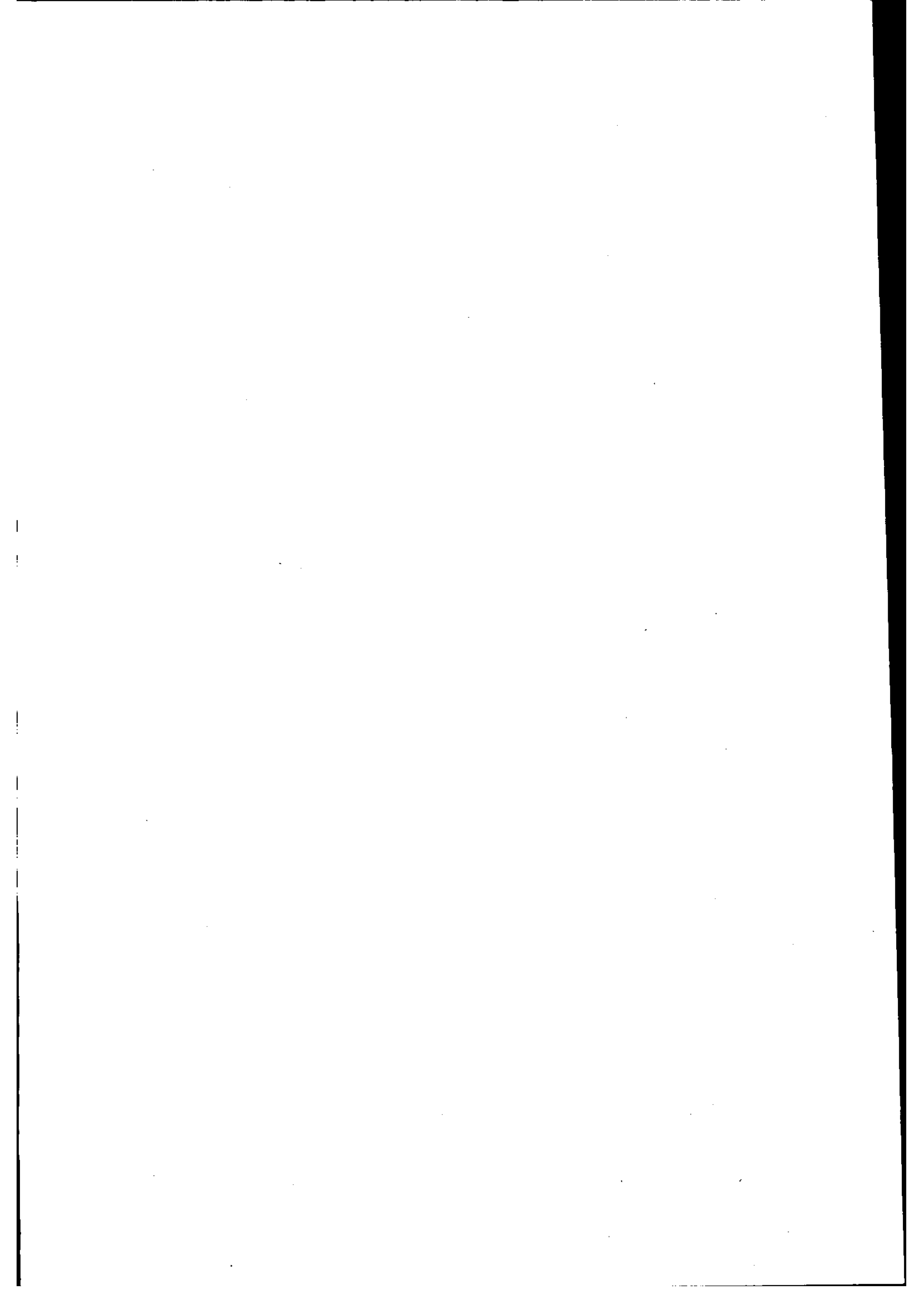
فهذا حاكم مسلم آتاه الله من كل شىء سببًا ، فمكن له في الأرض وألهمه أن يطوف فى الأرض شرقًا وغربًا ، دستوره أن يعذب الظالمين ، ويحسن إلى المحسنين وييسر لهم أمورهم ويلقون منه كل تيسير . ذلك فيما يبدو فى المواقع المتحضرة على وجه البسيطة . . تلك التى طغى تمدينها على روحها فتعكرت عين الحياة عندها وأصبحت عينًا حمئة وغربت عندها شمس القيم وتمكن الترف منها .

حتى إذا وجد قومًا فى فجر حضارتهم حيث تطلع عليهم شمسها لم تحجبها عنهم غيوم المادة والترف فما زالوا فى فترة الانبثاق الروحى كما كان صحابة رسول الله فى مجتمع المدينة ورسول الله بين ظهرانيهم حتى إذا وجد حالة مثل هذه مضى لشأنه فهؤلاء على الجادة ماضون ولا يحتاجون منه شيئًا « كذلك.. وقد أحطنا بما لديه خبرا » .

ويمضى فى الأرض حتى إذا وجد قومًا ضعفاء تدخل عليهم قبائل يأجوج ومأجوج من فتحة بين سدين يستعبدونهم ويفسدون عليهم حياتهم طلبوا منه أن يعطوه خرجًا على أن يبنى لهم سدًا . وجاء الرد ليمثل رأى الإسلام إلى يوم القيامة ، لا أيها الناس لا أريد خراجًا ولكن أعينونى بقوة بشرية أعلمكم تكنولوجيا جديدة

تستطيعون بها أن تحموا أنفسكم . تعالوا أعلمكم كيف تصنعون سبيكة قوية من الحديد والنحاس ولا حاجة لى في مالكم ، حسبى أن أعلمكم لوجه الله رحمة من ربى .

هذا هو النظام العالمى فى الإسلام . . لا هيمنة ولا علو ولا إفساد فى الأرض ولا احتكار لتكنولوچيا ، وإنما حزم مع الظالمين وحسنى مع الصالحين وعون للضعفاء .



يقرر القرآن فى إعجاز مذهل أن البشر إذا افتقدوا أربعة شروط أساسية فإنهم لا محالة سوف يفقدون كل خير فيهم .. يفقدون ذلك كلما امتد بهم العصر رويدًا رويدًا . يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [سورة العصر]

فالشروط الأربعة إذن هى :

الإيمان - العمل الصالح - التواصى بالحق - التواصى بالصبر .

والإيمان ليس إيمانًا بأى عقيدة مخترعة يصوغها فيلسوف أو مصلح ، وإنما هو إيمان بالله واليوم الآخر وإيمان بالبعث والنشور وإيمان بالجزاء العادل فى الدنيا والآخرة وإيمان بأن ذلك جوهر ما بعث به الله النبيين وألهم به المصلحين .. رسالة واحدة من لدن آدم حتى محمد ﷺ .

والأمم تستطيع أن تستوقد نارًا حضارية بعقائد وضعية ، ولكن القرآن الكريم ينذر أن هذه النار سرعان ما يذهب ضياؤها ، يقول سبحانه :

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (١٨) ﴾ [البقرة: ١٧، ١٨]

فكل تمدين قام على أساس عقيدة وضعية مثله كمثل ضياء موقت سرعان ما يذهب ويترك الناس صمًا وبكمًا وعمياً لايستطيعون الرجوع مما ورطوا أنفسهم فيه من أسباب الحياة ، وهل يستطيع الغربيون اليوم أن يرجعوا عن نمط حياتهم الذى يقتل الإنسان والبيئة يومًا بعد يوم ؟

فالقرآن إذن يحدثنا فى سورة العصر أن أى جماعة إنسانية منغلقة على ذاتها فى أقفالها التى أحاطت بمداركها كاملة لابد أن تمضى مع الوقت إلى الخسران . والقرآن يفصل فى أول سورة العاديات حالة الضياع والخسران للنفوس عندما تتناهي فى انغلاقها الإدراكى . حيث تلهث المجتمعات لهثًا متصلاً وراء الشهوات ﴿والعاديات ضبحًا﴾ وربما أوقدت بذلك نارًا ﴿فالموريات قدحًا﴾ أضاءت لها ما حولها كأنه صباح جديد فاندفعت إليه ﴿فالمغيرات صُبحًا﴾ ومن ثم تثير حولها سحابًا ﴿فأثرن به نقعًا﴾ من غبار الحياة الدنيا والذى يزيدها تيهًا ويحرمها الرؤية المستبصرة لتجد نفسها في النهاية فى وسط مشاكلها المستعصية التى لا تجد لها حلاً ولا تستطيع منها عودة ﴿فوسطن به جمعًا﴾ .

والمجتمعات المنغلقة على نفسها فى أقفالها الوضعية التى أحاطت بمداركها لا تعرف إلا هدفًا واحدًا ، ألا وهو التكاثر .

التكاثر فى القوة وفى الترف وفى الاستعلاء على الآخرين وفى مباهج الحياة الدنيا وزينتها وفى الأولاد والمتع الحسية والشهوات . . . وذلك كله من غير سياج أخلاقى محيط ، أو غاية روحية سامقة .

وكلما أمعنت المجتمعات فى التكاثر كلما ران على حضارتها ما كسبت فيزيدها هذا الكسب انغلاقًا على نفسها قاطعة صلاتها بأى هدى يأتيها من السماء . . . ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) ﴾ [المطففين: ١٤] .

وفى علوم الفيزياء قانون اسمه «القانون الثانى للديناميكا الحرارية» . يقول هذا القانون :

« إن أى نظام مادى إذا أغلق على نفسه فلا تدخل إليه طاقة خارجية أو يؤثر عليه من خلال جدرانه عمل خارجى . . . إذا فعل ذلك فإنه لا محالة سوف يفقد أى نظام ابتدائى يملكه عند البدء ، وسوف تؤول الحياة فيه إلى الفوضى الكاملة » .

أليس هذا ما تنذر به سورة العصر مطبقًا على أى جماعة إنسانية أغلقت أبوابها دون أى هدى سماوى ، وادعت لنفسها أنها تستطيع أن تستوقد هذا الهدى من نفسها ؟ . . إن ذلك سوف يؤدى بها إلى الفوضى الكاملة فلا تستطيع الرجوع ، ويصبح محرمًا عليها أن تسترجع تمدينها كما يقول القرآن الكريم :

﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ (٩٥) ﴾[الأنبياء: ٩٥]

ونعود إلى سورة العصر ، فنرى أن الإيمان شرط أساسى . . كما أسلفنا . . ولكنه وحده لا يكفى وإنما تأتى معه ثلاثة شروط أخرى أولهما عمل الصالحات ، وعندما تنفصم الشخصيات الاجتماعية فتقول ما لا تفعل يكون ما تدعيه من إيمان إيمانًا مزيفًا ، فالإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، والله تعالى يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣) ﴾ [الصف : ٢ ، ٣]

ونفس القرآن يقرر أن الله لا يهلك قومًا لمجرد عقائدهم الفاسدة بينما يتعاملون بينهم بالحسنى ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) ﴾ [هود : ١١٧] والظلم هنا هو الشرك .

فقد يؤدى عالم الروح فى أمة إلى قيام تمدين راشد أو ناقص ؛ فيه علاقات إنسانية معقولة . وقد ينشأ فى لحظة ما فساد فى عالم الروح بينما فى هذه اللحظة التاريخية يوجد هذا التمدين ومعه تلك العلاقات الإنسانية المناسبة له ، سنة الله أن لا يخسف بهذا التمدين فى لحظة نشوء الفساد فى عالم الروح وإنما يتركه لسنة أخرى وهى أن الفساد فى عالم الروح سوف يؤدى فى النهاية . . وبعد زمن . . إلى فساد التمدين الأصلى وهلاكه .

وقارون كان من قوم موسى ، يحمل عقائده ، ولما انفصمت أفعاله عن عقائده واستبدل بالعقائد الطيبة عقائد طاغوتية خسف الله به الأرض بعد أن فتن الناس بتمدينه إلا قليلاً منهم .

والله لم يخسف به وبداره الأرض لعقائده الفاسدة فحسب وإنما لأن هذه العقائد الفاسدة أدت فى النهاية إلى البغى ، والبغى عقوبته الخسف . ولقد رأينا الدورة فى حياة قارون قصيرة . . عمر رجل . . ولكن نفس الدورة تحدث فى القرى والأمم . ولكن الفجوة الزمنية بين نشوء الفساد فى عالم الروح ووقوع الخسف فى عالم التمدين أكبر من عمر فرد ، وقد تمتد قرونًا ، والناس قد يرون التمدين باسقًا بينما يرون فساد عالم الروح فيظنون بالله الظنون وينسون أن هذا التمدين الحالى لم ينشأ من عالم الروح الحالى ، وإنما نشأ من عالم روح سابق ، فحتى تتحول العقائد والقيم إلي أخلاق وسلوكيات يحتاج ذلك إلى وقت ، ثم حتى تتحول الأخلاق والسلوكيات إلى إبداع وتمدين ربما أخذ ذلك وقتًا أطول .

والتمدين الإسلامى لم يظهر بازغًا إلا فى الدولة العباسية بينما كانت نشأته فى عالم الروح عقائد وقيمًا فى عهد النبوة وما تلاها من فترة راشدة . بينما كانت إنحرافات عالم الروح في الدولة الأموية والعباسية هى التى أدت إلى ضياع التمدين وسقوط الدولة فى القرنين الأخيرين .

ومرة أخرى نؤكد **﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾** .

نعود مرة أخرى إلى الشرط الثانى لاتزان الحضارات وتماسكها وهو «العمل الصالح» الذى يتفق ويتناغم مع العقائد والقيم التى يفرضها عالم الغيب ؟

إن القرآن يركز على العقائد والقيم والموازين ويشرح العبادات ويعطى توجيهات كلية للعقائد ، ولكنه لا يعطى تفاصيل دقيقة لكل عمل

ينبغى أن يعمله الإنسان أو تعمله الجماعة أو تقوم به الدولة ، إن ذلك من شأن الجماعة المسلمة فى سعيها الحياتى بالعشى والإبكار . ومن ثم لابد أن تكون هناك وسيلة لتقييم الأعمال وتصحيحها من وقت لآخر حتى نتأكد أن المسار ما زال متناغمًا مع عالم الغيب .

إن القرآن يجعل ذلك فرض عين علي الجماعة المسلمة ، فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ ... فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾[التوبة: ١٢٢]

فكل توجه تنموى ينبغى أن يكون فى قمة العاملين فيه طائفة متخصصة تقوم أولاً بتحديد أهداف هذا العمل التنموى وربط هذه الأهداف بالأهداف الربانية للإنسان المسلم والمجتمع المسلم . فلو كان الأمر اقتصاديًا - مثلاً - ينبغى أن تتحقق هذه الطائفة المتخصصة من أن هذا النشاط الاقتصادى ليس فيه إثم على أصحابه ، وأنه يزيد الخير فى المجتمع ؛ وأن هذا النشاط لا يظلم أحدًا ، وأنه لا يشيع فاحشة فى المجتمع . كذلك ينبغى أن ينظروا فيما تتطلبه العقيدة من تشريعات حول الأمر محل الاجتهاد ويضعون ذلك بين يدى إخوانهم الفنيين التنفيذيين صناع النظم .

وبالطبع هؤلاء الفنيون التنفيذيون هم أنفسهم أصحاب رغبة حقيقية فى تنفيذ شرع الله ، ولكن انشغالهم ببناء النظم لن يسمح لهم بوقت لمعايشة الأفكار الكلية واتساقها مع أهداف المجتمع المتمثلة فى عقائده ومجموع قيمه .

إننى أسأل أحيانًا :- من الذى يضع أهداف العملية التعليمية فى مصر ؟ هل هى وزارة التعليم المصرية ؟ بالطبع لا . . فوزارة التعليم مجموعة من الفنيين المشغولين ليل نهار بالعملية التعليمية وليس عندهم وقت للتفكير والتأمل فيما ينبغى أن تكون عليه فلسفة التعليم . إن غياب هذه المجموعات العليا التى تستطيع أن تنجو بنفسها فى مكان قصى تتأمل وتتدبر فى فلسفة التعليم واتجاهاته الكلية ونسب العلوم بعضها إلى بعض والهدف التنموى من العملية التعليمية ، وإعطاء بعض الاجتهادات المختلفة لتكون بين يدى صانعى القرار ، يختارون منها المناسب للواقع الذى يعرفونه بحكم قربهم منه . . إن غياب مثل هذه المجموعات يجعل كثيرًا من جهدنا ضائعًا . فتعليمنا لا يزيد من انتمائنا ، وتعليمنا لايخدم العمليات التنموية عندنا ، وخريجنا المجتهد والمتميز يجد نفسه . . بعد أن يبذل قصارى جهده ربع قرن من الزمان فى الشارع لا يجد عملاً حقيقيًا يخدم به نفسه أو يخدم به أمته ، كل ذلك ينشأ ، وينشأ مثله فى كل القطاعات نتيجة لغياب منظومات الفقه الحضارى التى أمرنا الله بإنشائها فى كل مجالات الحياة . . فمن كل فرقة طائفة . . من كل فرقة فنية وتنفيذية متدبرة تبحث فى أهداف العمل وتراجعه فى ضوء العقائد والقيم .

وفى الغرب توجد هذه الفرق تراجع كل الأعمال من خلال مرجعية غير ثابتة . . مرجعية المصلحة المادية والنفع المادى فحسب ، ولذلك فهم يدركون نجاحات فى المدى القريب . ولكن تغيب عنهم المراجعة فى ظل مراجعة ربانية ، وقد اختفى من مجتمعاتهم المصلحون الربانيون حيث يسيطر اليوم - كما أسلفنا-

عـالم غـيـب مـادى ، صـحـيـح أننا قـد بدأنا نسـمع عن بعض الفلاسـفة الغربيين الذين يتنادون بالإسلام كـسبيل للخلاص ، ولكن مـا زالت هذه الأصوات خافـتة ، ومـا زال المجتمع يموج بفكر مادى خالص يقوده فى كل دروب حياته .

وننتهى الآن إلى الشرط الثالث والرابع من شروط بقاء الحضارة وتجديدها ، ألا وهمـا التـواصى بالحق والتـواصى بالصبر ، والقرآن يؤكد هذا المعنى فى قوله : ﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) ﴾ [هود : ١١٦، ١١٧]

إن السمة الأساسية للقرون التى هلكت هى غياب المجموعات التى تنهى عن الفساد فى الأرض ، ومن ثم يتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه ويكونون مجرمين .

والذين يتعرضون للتواصى بالحق سوف يتعرضون - لا محالة - لمقاومة شرسة من قبل المترفين ، وسوف يبذل هؤلاء المترفون كل ما يستطيعون من إجرام للقضاء على هؤلاء الرجال الذين ينهون عن الفسـاد فى الأرض . ومن ثم يحتـاج هؤلاء الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر إلى التـواصى بالصـبر يشـجع بعضـهم بعضًا ويثبت أقدام بعضهم البعض .

تشخيص الحالة الحضارية فى الأمة

إنه من الضرورى - ونحن نريد أن نفكر فى عمليات البعث والتجديد الحضارية - أن نقوم بعملية تشخيص دقيقة للحالة الحضارية ، نتعرف من خلالها على نواحى القوة ونواحى الضعف . . نواحى العافية ونواحى المرض ومن ثم نستطيع - بعد هذا - أن نشير إلى طريق التجديد الذى ينبغى أن نسلكه ، وأنا من المؤمنين أن فى الأمة خيرًا كثيرًا ، وأن الأمراض يمكن علاجها . بل أشعر فى كثير من الأحيان أن هذه الأمة تملك من عوامل القوة والبقاء ما يجعلها فى موضع أحسن من كثير من الأمم المستكبرة الأخرى ، خاصة فى تملكها آليات اجتماعية بسيطة تجعل حياتها أكثر يسرًا وإمتاعًا من أنماط حياتية أخرى فى دول صناعية كبرى .

وسنفعل كما يفعل الأطباء فنقسم الحالة الحضارية إلى عناصرها المتعددة :

* الحالة العقيدية والحالة العقلية والحالة الأخلاقية

١ - الحالة العقيدية :

تتمتع الحالة العقيدية فى مجملها بالعافية فهى عقيدة التوحيد الصافية كما جاء بها القرآن ، وتتركز فى الإيمان بالله ورسله وكتبه وملائكته وباليوم الآخر وبالحساب وبالجزاء وبالجنة والنار . إن هذه

العقيدة الصافية والتى تربط المؤمن بأعظم قوة فى الكون ، قوة الله الحى القيوم الغفور الرحيم الرازق المهيمن ، إلى آخر أسماء الله الحسنى ، هذه العقيدة تعطى سكينة للنفس وطمأنينة للقلب ومكانة فى الوجود ، وتمنح النفس ثنائية إيجابية ، فالعبودية لله تمنح الحرية والانعتاق من أسر الدنيا . والافتقار إلى الله يمنح الاستغناء عن كل كنوز الدنيا ، والأنس بالله يغنى الإنسان عن الأنس بالناس ، والخوف من الله يمنح الإنسان شجاعة مفرطة ، والاطمئنان إلى عطاء الله يجعل الإنسان جوادًا كريمًا . وباختصار فإن هذه الثنائيات تدفع إلى الحياة بإنسان متوازن مطمئن يعيش فى سلام داخلى وسلام خارجى مع الكون والناس .

وكما أسلفنا :- فإن القرآن يقدم للمسلم عقيدة صافية سمحة ومعها مجموعة من القيم التى تمثل الميزان الذى ينبغى أن يزن به كل شىء فى الحياة حتى يقوم بالقسط ، ولكن هذه العقيدة الصافية تصطدم أحيانًا ببعض العقول المتحذلقة والمتفلسفة والمغالية فى دينها فتدخل إلى ميادين لا ينبغى لها أن تدخل إليها لأن طبيعتها لا يدركها العقل البشرى .

فترى انشغال العقل المسلم بطبيعة الذات الإلهية وطبيعة الملائكة وطبيعة الحياة فى البرزخ وطبيعة النعيم والعذاب فى الآخرة وتجاوز العقل المسلم لقدراته وقفزه إلى مناطق محرمة عليه . كما يقوم هذا العقل بالخوض فى مسائل فلسفية حول القدر وحول الزمان والمكان . كل هذه الأمور جنحت بالحياة الفكرية الإسلامية بعيدًا عن القصد وفرقت الأمة شيعًا وأحزابًا .

والقرآن يتحدث دائمًا عن هذه الأمور ضاربًا الأمثال لتقريب صورة عالم لا نستطيع إدراكه بما نملك من حواس وعقل وإسقاطه على أشياء ندرك كنهها ونستطيع تصورها ، والله يقول عن نفسه ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ .

٢ - الحالة العقلية :

الحالة العقلية تمثل أضعف الحلقات فى سعينا الحضارى ، فأولاً موقفنا من التراث ملىء بالضباب ثقيل على كاهل العقل يعوقه فى كثير من الأحيان من التقدم ويكبله بقيود وهمية . فالعقل المسلم اليوم يختلط عليه ما هو ثابت وما هو متغير ، وهو عقل يريد أن يضيق ما وسعه الله فى كتابه وفى سنة نبيه ، فإن كان أصل العبادات هو التوقف . أى فعل ما كان يفعله رسول الله ﷺ دون إضافة أو نقصان ، وإن كان رسول الله ﷺ سمح بتعدد فى شكل عبادة فنقل عنه الصحابة ما رأوه أو ما سمعوه ، كل بما رأى وبما سمع ، فيجوز للمسلمين من بعد أن لا يضيعوا فكرهم وأوقاتهم فى التحزب لهذا الفريق أو ذاك الفريق . . وأنا لا أعتبر هذا علمًا فليس فيه إعمال عقل وإنما هو نقل نتوقف عنده وننتهى ، وإذا كان مجتمع الرسول ﷺ سمح للنساء أن يتحجبن أو أن يتنقبن ، فلا ينبغى أن يكون هناك أصلاً . . أى حوار ومهلكة للوقت فى الجدل حول هذه المواضيع ، هذا ليس علمًا وإنما هو تعالم الذين لا يملكون عقولاً بها يتفكرون ، فلتتحجب من تشاء من النساء ولتتنقب من تشاء مدركة أن هذه التعددية كانت فى المجتمع المسلم الأول ، بل

ولتكشف شعرها من تشاء من النساء ولتدرك أن هذا لم يكن من خلق الحرائر فى زمن الرسول ﷺ ؛ وأن إجماع النقل هو على صورتى الحجاب أو النقاب .

وهو عقل تختلط عليه أيضًا النظم بالقيم . فالنظم التى بناها المسلمون فى حضارتهم لتحمل قيمهم هى نظم ناسبت وقت وطبيعة الحياة فى حينها ، ومن ثم فهى غير مقدسة ، ونستطيع أن نستبدلها بما هو خير منها سواء كان ذلك إبداعًا من أنفسنا أم نقلاً واستيعابًا عن غيرنا ، كذلك هو عقل كليل عن التعميم أو التخصيص . . أى التعميم من حوادث حدثت هنا وهناك فى تاريخ الأمة والخروج بقواعد عامة يمكن تطبيقها على أحداث جديدة ، وكذلك هو عقل عاجز عن التخصيص . حيث يستطيع تطبيق قاعدة عامة على حادثة جديدة .

إن التعميم والتخصيص كانا من القدرات العظيمة فى حياتنا الفقهية وهو أمر يحتاج إلى تدريب حضارى ، ونحن اليوم لا نملك هذه العقول ولا نحرص على تنميتها ، وتعجب عندما تسمع بعض الدعاة أو المثقفين يعممون ويخصصون ، فتشعر بضعف شديد فى قدرات الأمة العقلية ، وربما ساعد على ذلك ازدواجية التعليم وحصار التعليم الدينى - فى جملته - فى الوعظ مع مشاركة خفيفة فى المعاملات ، ولكن الحياة تتدفق حسب خبراتنا التى تعلمناها من الغرب . ومن ثم فإن العقل المسلم لم يبدأ بعد ولم يعط الفرصة ليصوغ الحياة حسب اجتهادات إسلامية .

كذلك من مشكلاتنا العقلية الجسيمة القراءة الخاطئة لأحداث التاريخ ، والإسقاط الفج على الواقع .

لقد كتبت مرة :- إنَّ التاريخ أحداث ومناخ ، وكثيرًا ما يروى لنا الرواة الأحداث دون أن ينقلوا لنا المناخ ، وفى الروايات كثير أو قليل من الضباب ولذلك فإن اعتماد المصلحين على تاريخ الأحداث المضبب والخروج منه بعبر غير صادقة أمر يمكن أن يؤدى إلى كوارث ، وإنه ليحدث هذه الأيام حيث نسمع كثيرين ممن يتعرضون للعملية الإصلاحية يسقطون أحداثًا تاريخية على واقع مخالف فينتج عن ذلك وهم كبير .

وكثير من الجماعات الضالة تقرأ التاريخ الإسلامى بهذه الطريقة ويستخرجون منه مواقف مهلكة . ومن آفات العقل المسلم أنه يؤمن بنموذج أوحد للصواب ، غير مدرك أن الله قد خلق كل إنسان وله بصمة إنسانية متميزة ، وأن هذا الإنسان عندما يتفاعل مع العقيدة والقيم والبيئة فى أحسن صورة سوف يعطينا نموذجًا للصواب يختلف عن أى نموذج آخر للصواب . . فهل كان أبو بكر مثل عمر - رضى الله عنهما - ؟ كلاهما قمة الصواب شاء الله أن يصلحا لزمنيهما فجاء الأول نموذج الصواب الأمثل للحظة تاريخية وجاء الثانى نموذج الصواب الأمثل للحظة تاريخية .

ومن آفات العقل المسلم كذلك ضعف إيمانه بالتعددية الفكرية ، ومحاولة حمل الناس على آراء مسطحة تخرج من عقول مسطحة ، ولقد تعرضنا فى هذه الدراسة من قبل لمبدأ القرآن فى التعددية الفكرية عندما تحدثنا عن قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) ﴾ [هود : ١١٨] .

ومن آفات العقل المسلم اليوم ضعف القدرة علي التشخيص . فكل مصلح موهوم يخرج علينا بمشروع للهدم . نهدم فيه كل الأبنية والنظم ثم ننتظر عبقرية سيادته التى ستحمل لنا تصميمًا شاملاً وكاملاً للأرض وللبشر . إننا أمة نمتلك كثيرًا من الخير وكثيرًا من النظم البسيطة والمعقدة يمكن أن نبنى عليها بطريقة تدريجية واستغفارية . وهذا يأخذنا إلى آفة أخرى من آفات العقل المسلم وهى أنه عقل غير أواب ، غير مستغفر ، إننا نبنى نظمًا ولانحاول أن نقيس أداءها ونقارن هذا الأداء مع ما هو مأمول منها ثم نحاول بعد ذلك التصحيح أو الاستغفار .

إن الغرب يفوقنا كثيرًا فى بناء هذه النظم الرجّاعة أو المستغفرة أو الأوابة ، والحق أن الناس لا يبنون نظمًا كاملة عند ميلادها ولكنها نظم تنمو مع الوقت وتتحسن بالمحاولة والخطأ ، ولا نعرف فى تاريخ البشر نظامًا كاملاً بناه البشر .

ومنهج الاستغفار هذا منهج قرآنى ، والله تبارك وتعالى يمدح سيدنا إبراهيم بقوله ﴿إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾ ويمدح سيدنا أيوب بأنه ﴿نعم العبد إنه أواب﴾ .

ومن آفات العقل المسلم المعاصر عدم احترامه لدور الفكر وخطورته فى هيكل العمل الحضارى ، وسواء كان هذا العقل عقلاً حكوميًا أم عقلاً يعمل فى الإصلاح . الكل يهمل دور الفكر

بدرجة ما والكل يدعو إلى العمل السريع الذى لا ينبنى على فكر رجاع مدروس .

ومن آفات العقل المسلم أنه يهمل دور عوالم الغيب فى نشأة الحضارات وما يستدعيه ذلك من تربية الأمة على ثقافتها .

وأخيرًا آفة الاستلاب العقلى عن طريق فتنة عالم الأشياء ، وفتنة براعة صياغة النظم العقلية فى الحضارات الأخرى الغالبة ، وفتنة تقدم النظم الحياتية فى تلك الحضارات .

إن ذلك - للأسف - قد خلق فريقًا من القردة لا يفرقون بين تبنى النظم النافعة فى الحضارات الغالبة وبين الحرص على تنشئة شباب الأمة على الحلم الثقافى الذى نأمل أن يستكن فى أفئدة الشباب ليكون مصدر إشعاع لهم فى المستقبل . وكيف يحدث هذا ونحن نعين وزيرًا للثقافة يسأل فى استنكار الذين يراجعونه فى مجلس الشعب : وهل هناك علاقة بين الثقافة والدين ؟!!!!

٣- الحالة الأخلاقية :

يلعب الدين دورًا عظيمًا فى الحفاظ على الأخلاق والسلوكيات الفردية والأسرية والإمساك بها من التدهور أمام الظروف الاقتصادية والقهر السياسى والمؤامرات الدولية لتحطيم السياج الأخلاقى الذى يحفظ الناس فى مواجهة الحملات المنظمة للإعلام العالمى الفاسق وجيوش المخدرات وجيوش القوادين .

كما أن التكافل الاجتماعى الذى يأمر به الدين يلعب دورًا عظيمًا فى المساهمة فى حل المشكلات الاقتصادية وما تعانيه

الملايين من بطالة مقنعة أو حقيقية . وكذلك يلعب الدين دورًا عظيمًا فى الحفاظ على مؤسسات الدولة من خلال ثبات العاملين فيها رغم قلة أجورهم وعدم وفائها بالمتطلبات الأساسية للحياة .

كما يلعب الدين دورًا هامًا فى الحث على الأعمال التطوعية التى ليس وراءها عائد مادى للأفراد القائمين عليها ، وإنما يفعلون ذلك ابتغاء وجه الله .

ما تحدثنا عنه آنفًا كانت إيجابيات الحالة الأخلاقية ؛ والآن نعدد بعض السلبيات .

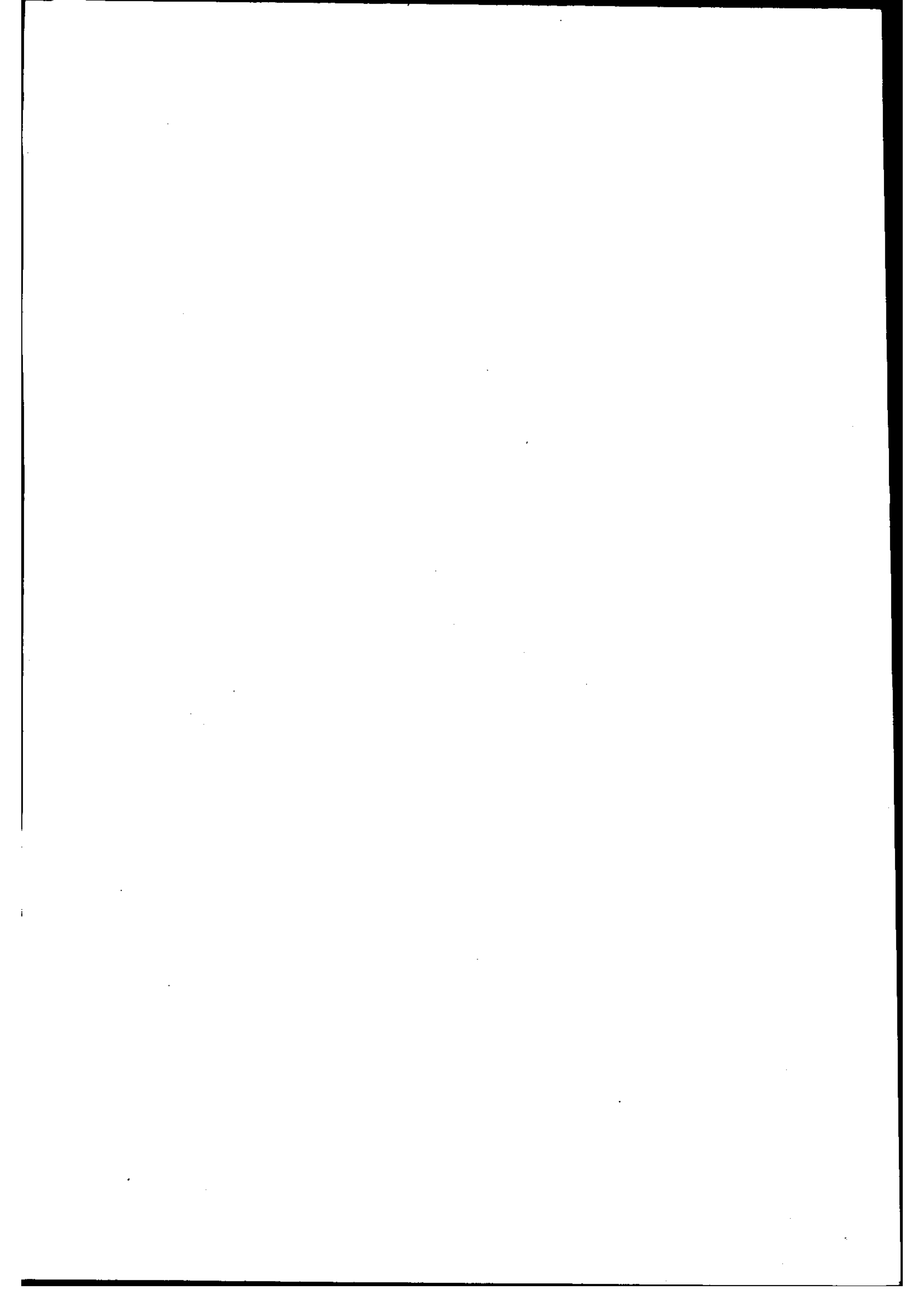
لقد أورث الخوف من الفقر شحًا وجبنًا يحول دون ارتياد المشاريع المغامرة ، وجعل الناس من ناحية لا يغامرون حيث تنبغى المغامرة وفي نفس الوقت يتكدسون وراء المشاريع الناجحة حتى يفشلوها ، فإذا كانت هناك منطقة سكنية تحتاج إلى بقال واحد لخدمتها فإن نجاح أول بقال يغرى الآخرين بنفس المشروع فتتعدد مشاريع البقالة حتى يعمها جميعًا الكساد .

كما أن الأعمال الاجتماعية لها أخلاق ملازمة لا تجد الناس يأبهون لها ، ومن ثم سرعان ما يصطدمون بالفشل ، وعندئذ تخرج أضغان النفوس ويبدأ الصراع . انظر مثلاً إلى ما يتطلبه القرآن من الذين يتعاملون ماديًا من عمليات التوثيق الدقيقة لكل تعامل مادى صغر أو كبر ، وانظر لكثير من التعاملات المادية التى تهمل هذا الجانب ، إما كسلاً وإهمالاً أو ظلمًا ، وما ترتب على ذلك من مشكلات بين الناس .

فكل عمل اقتصادى أو اجتماعى يتطلب مجموعة من الأخلاقيات المصاحبة ، والرأسمالية الغربية تطبع الناس بأخلاقيات فردية أو اجتماعية تميز هذه المجتمعات ، والعمل التعاونى فى قرانا ونجوعنا يفرض مجموعة من الأخلاقيات المصاحبة ، والمشكلة تحدث عند الانتقال من طور اقتصادى إلى طور آخر وخاصة عندما يكون الانتقال أسرع من قدرة الناس على اكتساب الأخلاق المصاحبة للطور الجديد .

إن حساب الوقت عند الفلاحين فى القرية يمكن أن تكون وحدته الصغرى هى الساعات أو الأيام فإذا انتقل هذا الفلاح للعمل فى مصنع فى المدينة فإن حسابات الوقت تكون بالدقائق ، وحتى يتأقلم الفلاح مع بيئته الجديدة يحتاج إلى جهد وتدريب ووقت . وإن كثيرًا مما نشكو منه من سوء الأخلاق الاجتماعية لانتج عن فساد فى النفس وإنما ينتج من عملية الانتقال من طور اقتصادى إلى طور آخر تختلف فيهما وحدات الزمن ويكون هذا الانتقال سريعًا بحيث يتم التدريب والمواءمة النفسية على أخلاقيات الطور الجديد .

كما أن استحداث أشكال جديدة من التكنولوچيا فى المسكن والملبس والطعام والشراب ووسائل الانتقال يؤدى - بالضرورة - إلى ضمور أخلاقيات اجتماعية بعينها وبروز أخلاقيات أخرى ، وربما تم ذلك بسرعة أكبر من قدرة الناس على التواؤم فتبدو الأخلاق مهتزة مترددة فى هذه المراحل الانتقالية .



مراجعات في «دور التنمية في التجديد الحضاري»

مقدمة:

منذ أكثر من عشرين عامًا وأنا أكتب وأُحاضر وأدعو إلى مفاهيم للتنمية المستقلة التى نستطيع أن نحيا بها حياة كريمة ، ومنذ ذلك الوقت وأنا أُحذر من الاستمرار فى نمط التنمية القهرية التى جعلتنا أسواقًا مفتوحة لعالم أشياء يتدفق علينا من الشرق والغرب .

ومنذ عامين تحدثت فى ندوة عن القطاع الخاص والقطاع العام الاقتصادى وقلت :- إنّ الأمر التنموى يتجاوز الأشكال الهيكلية إلى جوهر أساسى . . ألا وهو أننا لا نملك قرارنا التنموى ، سرقة اللصوص من الخارج أو من الداخل . والناس تتحدث عن تعليم وتدريب وتنسى أن التعليم والتدريب أُمور مرتبطة بهياكلنا التنموية ، بحيث تتحدد فلسفة التنمية أولاً ثم على إثرها تتحدد أُمور التعليم والتدريب والتثقيف .

ثم إن اندفاع البشر نحو تحقيق أى فكر تنموى يتطلب بعثًا ثقافيًا وإعدادًا عقليًا وتدريبًا سلوكيًا وإقناعًا مصلحيًا .

ففى البعث الثقافى ينبغى أن يدرك الإنسان أن إعمار الأرض فرض على المجموع ، وأن الإعمار يتم بأيدينا لا بأيدى الغير ، وأن الانتشار فى الأرض فضيلة إسلامية بينما الإكتظاظ مكروه لما يؤدى إليه من مكاره . وكذلك ينبغى أن يدرك الإنسان أن العوالم

من حوله عوالم صديقة تسبح بحمد الله وتكبر ، وأنه يمكنه أن يفهم منطقها وأن يسخرها لغاياته ، ونبى الله سليمان استطاع بعلمه أن يفهم منطق الطير والحيوان والحشرات والإنس والجن ، واستطاع أن يسخر هذا كله فى مصلحة الإنسان فى اتجاه الخير ، وجيش سليمان هو الذى أتى « على » وادى النمل ولم يأت النمل إلى وادى الإنسان ويوحى حرف الجر « على » بالعلو والهيمنة ، والدرس المستفاد :- أن جيش سليمان قد انصاع للحق أمام تحذير النملة القائدة ، وانصاع بحب وشكر :

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) ﴾ [النمل: ١٩] وهذا الفهم ينبغى أن يكون عقيدة ثقافية يتسلح بها الفرد المسلم فى تعامله مع البيئة المحيطة مدركًا أنه بالعلم والحكمة يستطيع أن يتناغم مع البيئة المحيطة فاهمًا لمنطقها مسخرًا لها .

إن الرسالة التى تحتويها قصة النملة تلخص موقف الإسلام من البيئة لتصبح عقيدة مستكنة فى أعماق كل مسلم : الفهم والحب والتسخير .

والإعداد العقلى للقوة البشرية المنوط بها القيام على خريطة التنمية أمر بالغ الأهمية ، والناس قد خلقوا درجات فى قدراتهم العقلية ، .وفى نفس الوقت تتدرج الأعمال فى مطالبها العقلية ، فهناك أعمال تحتاج إلى مضاء عقلى عظيم ، وهناك أعمال تحتاج إلى

مهارات يدوية أكثر مما تحتاج إلى مضاء عقلى ، وهناك أعمال تحتاج إلى شحذ الوجدان وتنمية الروح . وينبغى - والأمر كذلك- أن يتوجه كل امرىء إلى ما يجد نفسه فيه ، وينبغى أن لا نسرف فى الإعداد العقلى لبشر سوف يقومون بأعمال بسيطة طيلة حياتهم .

أنا لا أتحدث هنا عن فرد أو مجموعة أفراد ، وإنما أتحدث عن ملايين من البشر . ففى كثير من الدراسات الغربية عن « العمل» لاحظ الباحثون أن الإعداد العقلى الضخم لكثيرين - ممن لم يجدوا عملاً إلا فى خطوط الإنتاج - جعل حياتهم شديدة الملل ومليئة بالأمراض النفسية ، وفى بلد كمصر يدخل كل عام للجامعة مئات الألوف ثم إذا تخرجوا جلسوا فى بيوتهم ينتظرون أعمالاً تليق بشهاداتهم الكبيرة ويرفضون أى عمل دون ذلك ، وتضطر الدولة فى كثير من الأحيان أن تعينهم فى وظائف لها مسميات وليس لها جوهر فيضيفون إلى العمالة الظاهرة عمالة باطنة .

باختصار ينبغى أن يكون الإعداد العقلى مناسبًا لطبيعة الأعمال المرتقبة فى منظومة التنمية ، والأصل فى الأشياء هو التدريب وليس التعليم . . أى أن الناس ينبغى أن يتدربوا على منظومة الأعمال التى أفرزتها خطتنا التنموية ، وبالطبع كل تدريب يحتاج إلى تعليم مصاحب .

وكثير من المهن يحتاج إلى نوعيات من السلوكيات والأخلاقيات تصاحبها . بعض المهن يحتاج إلى صبر ، وبعضها يحتاج إلى شجاعة ، وبعض المهن يحتاج إلى روح المغامرة ، وبعضها يحتاج إلى روح البحث عن الجديد ، كما أن بعضها يحتاج إلى روح محافظة ،

وبعضها يحتاج إلى بسط اليد وبعضها يحتاج إلى قبضها . . وكل مهنة تحتاج إلى تدريب سلوكى بحسبها . . والأمر كله يحتاج إلى نظر بصير وبحوث متصلة من قبل علماء الأمة .

وفى النهاية يحتاج الناس إلى رؤيا مصلحية تظهر لهم أن ما سيقومون به من أعمال سوف يؤدى بهم إلى الفلاح فى الدنيا وفى الآخرة ويجعل حياتهم أكثر يسرًا ويخرجهم من الضيق إلى الفرج القريب .

ولا يظنن امرءٌ أن قضية التنمية منبتة الصلة بقضايا التجديد الحضارى ، فإنها من أهم أدوات هذا التجديد ، وإن إنفاق الوقت والجهد فى رسم معالمها وتصميم خطوطها هو أمر فى صميم أعمال التجديد الحضارى .

ولعلى فى هذه الورقة أُلقى بعض الضوء على دور الدولة ودور الفرد ودور الجماعة فى العمليات التنموية .

دور الدولة :

عرفت التنمية فى إحدى كتاباتى فقلت :

« التنمية هى التخلية بين الإنسان وترابه الوطنى ليتفاعل معه فى ظل عقيدة وشريعة ونظام ليصنع طعامه ولباسه وشرابه » .

والتخلية تستدعى أمورًا عدة من قبل الدولة :

- فلسفة راشدة وتخطيطًا حكيمًا يؤدى إلى ترجمة التنمية إلى خريطة مشروعات حقيقية يمكن القيام بها من خلال مؤسسات حقيقية وطنية .

- البنية الأساسية الضرورية جدًا تصمم بعناية بحيث يقوم أصحاب المشاريع بتوسيعها لمصلحتهم كُلٌ فى اتجاهه .

- التعليم والتدريب الأساسيين والمرتبطين بمشاريع التنمية الأساسية ، على أن يترك أمر التعليم المتقدم للجهد التنموى ليحقق متطلباته من التعليم والتدريب .

- حماية السوق الوطنى من خلال فلسفة راشدة للاستيراد والتصدير فى توازن لكل القطاعات التنموية المرجوة .

- الصياغة التنموية لكل مشروعات الدولة .

- الخدمات والمشروعات التى تقوم بها الدولة ينبغى أن تدار بالمفاهيم الإدارية التى تقوم على العدل مثل « الثواب والعقاب » و « الأجر والحياة الكريمة » و « المسئولية والأجر » . . . إلخ .

- إنشاء المنظومة البشرية التى تخطط للتنمية وتتأكد من اندفاع البشر إلى تحقيقها ومتابعة ذلك وقياس عائده الحضارى ، هذه المنظومة ينبغى رعايتها والعمل على استقرارها ونموها العلمى والمعرفى .

إن إنشاء المنظومة البشرية القادرة على تخطيط التنمية وبلورة فلسفتها المتراكمة من خلال التجارب القومية والأجنبية فى قطاعات الحياة المختلفة يعتبر من الأمور الهامة والعاجلة فى عملية إنقاذنا ، وهى منظومة غائبة تقوم مؤسسات مختلفة فى قطاعات مختلفة بمهامها من غير ترابط وتنسيق ، بل فى كثير من الأحيان ينتج عن هذه السياسات المتفرقة أذى تنموى يؤدى إلى تقليص قطاع ، على حساب قطاع وقتل توجه على حساب توجه آخر .

إن اقتناع الفرد بأن هناك مهمة حقيقية أملتها سياسة تنموية مخططة تخطيطًا دقيقًا ليدفع بهذا الفرد إلى الجهاد والعطاء المتزايد فى سبيل إنجاز ما وقع فى دائرته من مهام . وفى كثير من البلاد الصناعية تجد أن فكرة إنجاز التحدى الملقى بعناية فوق رؤوس العباد فى مهام تنموية واضحة هو الدافع الوحيد للعطاء الفردى فى الحياة ، وانظر - إن شئت - إلى بلد كأمريكا ، يهاجر إليه ألوف كل عام ، كل منهم يحمل أشواقه الخاصة ، هذا عربى مسلم وهذا بوذى صينى ، وذلك هندى هندوسى ، قلوبهم شتى وأفئدتهم طيف قزح . ولكنهم جميعًا يوضعون فى مواقع المهام القومية ويهيئ لهم جو السباق المحموم من أجل إنجاز تنموى يرتبط نجاحه بحياتهم وبقائهم ، فيركضون كالعاديات ضبحًا . . فيورون الحياة التنموية فى أمريكا قدحًا .

كتب المهندس الأمريكى فوسير (M. W. Fossier) :

« عندما التحقت بشركة ريثون (للصواريخ) كمهندس شاب شعرت بروح دافقة لم أشعر بها من قبل لقد شعرت أننى محمول فى جو جهادى تشتعل فيه الرغبات المشتركة فى مواجهة تحدٍ خارق .

وفى هذا الجو العام المتوتر ، أصبح كل نجاح يضيف إلى التيه والزهو والبهجة عند الجميع .

وما زلت أذكر أول تجربة للصاروخ لارك (Lark) المضاد للطائرات فى عام ١٩٥١ م ضد نموذج لطائرة بدون طيار ، فعندما تابع الصاروخ الطائرة مستهدفًا اللحاق بها ، والجمهور يرنو إلى السماء متابعًا هذه المراوغة بين الطائرة والصاروخ ، حتى إذا ما اصطدم

الصاروخ بالطائرة كان صوت انفجار التصفيق والتهليل للجماهير قد غطى تمامًا على صوت الاصطدام فى السماء . ولفترة طويلة كنت أعزو هذا الحماس الدافق لروح الشباب ولكننى مع الوقت وجدت أن هذا الحماس يزداد مع الأيام ولا يخبو ووجدتنى أبحث عن تفسير آخر غير متعلق بالسن . . وإننى اليوم أشعر أن هذه الروح الحماسية كانت وليدة التحدى العقلى للمجهول . كلما أنجزنا تحديًا ينشأ لنا تحدٍ آخر . . وذلك هو طبيعة عملنا فى مهنة الهندسة » .

ونلخص الدرس المستفاد فنقول :- إن تخطيط التنمية وتفصيلها فى النهاية إلى مشروعات للأفراد والجماعات - مشروعات تحمل طابع التحدى المهنى والوطنى لكل فرد وكل جماعة - يعتبر من الفروض العينية التى يجب أن تنشغل بها الدولة ، وليست ترفًا قوميًا نؤديه أو لا نؤديه ، وأنظر فأجد غيابًا كاملاً لهذه المنظومة .

بل إننى أشكو - كما يشكو كل الشرفاء - من غياب أهداف التنمية الواضحة لكل المؤسسات والأفراد ، هذا الشعور الجهادى الذى يشعر به المهندس فوسير شعرت به فى لحظات تاريخية من حياتى عندما بدا لى أن هناك تخطيطًا ما فى مجال تخصصى من قبل الدولة فاندفعت بقوة نحو التحدى وقبل أن ألتقط أنفاسى توقفت الحياة فى التحدى ، المطروح ووجدت نفسى أمام سراب بقيعة .

إن مهمة الدولة بالغة الأهمية فى تكوين المنظومة العلمية القادرة على بلورة فلسفة راشدة ، ووضع تخطيط قاصد لتنمية مناسبة للبلاد والعباد ، وكما قلنا لابد أن تنشأ هذه المنظومة مستقلة عن كل الأجهزة التنفيذية الأخرى التى ربما يحسن أن تنتقل إلى الناس من خلال بلورة مشاريع خاصة بينما تنمو هذه

المنظومة الغائبة لتحتل دور الدولة الأساسى فى الحياة والذى يتلخص فى تصور تنموى ، ثم إيلاف الناس لهذه التوجيهات التنموية ، ثم حماية داخلية وخارجية لمشروعاتنا التنموية .

دور الفرد:◆

ودور الفرد بالغ الأهمية فى أى نهضة تنموية ، فكل تخطيط من قبل الدولة يحتاج بالضرورة إلى مواصفات خلقية ومهنية من قبل الفرد حتى يمكن للجماعة أن تنجز مهامها .

والقرآن يعلمنا أن هناك مثلثاً حضارياً يتعلق بالفرد ، أضلاع هذا المثلث هى : العطاء - التقوى - التصديق بالحسنى .

التقوى تحدد أدب العطاء وغاياته العليا وفق فقه بصير . إن التقوى للعطاء كالحكمة للعلم فكل علم لا توجهه حكمة يضل ولا ينفع ، كذلك كل عطاء لا تقوده تقوى هو عطاء مجذوذ .

فالتقوى تحدد لك لمن العطاء . . عطاء المدين للدائن . . كعطائك لأبيك ولمجتمعك كما تعهدوك صغيرًا ، أم عطاء شكر النعم . . ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ . والتقوى تعلمك أدب العطاء ، فلا ينبغى أن تندفع إلى موقع تعلم أن فى الأمة من هو خير منك له ، والقرآن يعلمنا فى آية الأمراء هذا المعنى الجميل ويعتبر أن ذلك من الأمانات التى ينبغى أن تؤدى لأهلها ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ . والأمانات نوعان كما يقول الفقهاء . . أمانات الأموال ، وأمانات الولايات ، وكل ولاية تتطلب شروطًا علمية ومهنية وخُلقية وخَلقية تتوافر فى البعض ولا تتوافر فى البعض الآخر ، والذين يندفعون إلى ولاية ويزاحمون عليها مَن هو أحق بها مجرمون آثمون ، كما أن الذى يعلم أنه أهل لولاية مَن كل

مِن حوله ، فمن حقه أن يندفع إليها لأن مصلحة الأمة فوق الحياء ولا حياء فى الحق . ونبى الله يوسف قالها صريحة لملك مصر : ﴿قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم﴾ .

فالتقوى إذًا تعلمك :- لمن تعطى ؟ وماذا تعطى ؟ وتهذب أداءك حيث تعطى ، وتحرر نيتك فى العطاء وتجعله لله كاملاً غير منقوص .

إن امرأة مؤمنة شعرت بجنينها يتحرك فى بطنها فهتفت ﴿رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررًا فتقبل منى . . إنك أنت السميع العليم﴾ .

ولا يهمك بعد ذلك إن تحقق عطاؤك فى الحياة على غير ما تصورت ورسمت فى مخيلتك ، ولا تقل حينئذ كما قالت امرأة عمران : ﴿ربِّ إنى وضعتها أنثى . . والله أعلم بما وضعت . . وليس الذكر كالأنثى﴾ .

يكفيك أنك حررت نيتك فى عطائك والله كفيل بالقبول والإنبات والرزق . .

والتصديق بالحسنى قوة دافعة للمؤمن ، حيث إن ثمرات العطاء لا تأتى دائمًا كما يتوهمها الإنسان ولا فى الوقت الذى يحسبه ، وربما أقعده ذلك عن العمل وعن العطاء أو جعله ثقيلاً على النفس شديدًا عليها يؤديه الإنسان مهمومًا مخذولاً فلا يبدع فيه ولا يبتكر . . فالإبداع والابتكار يحتاجان إلى نفس تعشق العمل وهى تؤديه ، أما إذا أدته كارهة أو لاهية فلا يمكن أن يؤدى هذا إلى تحسين الحياة وتطويرها ، ومن ثم كان لابد من الضلع الثالث فى المثلث الحضارى : «التصديق بالحسنى» . . حيث ينبغى على

المؤمن . . وقد أعطى واتقى أن يؤمن إيمانًا راسخًا بأن الناتج الحضارى لعطائه هو الحسنى . . رآها هو كذلك أو لم يرها لا يهم ، ومن ثم فلا يقلقه تباين النتائج عمّا ما تصور فى ذهنه أو تأخر النتائج لوقت لاحق . . ذلك ليس شأنه . . والله تبارك وتعالى يريد من عبده أن يؤمن إيمانًا راسخًا بأن نتيجة هذا العطاء التقى هى الحسنى . . أى على المؤمن أن يؤمن إيمانًا راسخًا بهذه المعادلة الحضارية :

العطاء + التقوى = الحسنى

ونعيد القول فنقول :- إن الإبداع يحتاج إلى عطاء الأنفس الراضية المطمئنة ، أما النفس التى تعمل قهرًا وقسرًا . . لا يرقفها خوف الله ولا يحدوها فى الله رجاء فلا يمكن أن تصدر عنها إبداعات إنسانية . ولن يكون هناك رضًا وطمأنينة إلا إذا آمنت النفس أن الله تبارك وتعالى سوف يجزيها الجزاء الأوفى ، وأن عطاءها الذى تحيطه التقوى ما استطاعت هو خير الدنيا والآخرة .

دور الجماعة :

لخصت مرة دور الجماعة فى عدة أمور :

* تحجيم الفتنة .
* مؤسسات الحض على إطعام المسكين .
* مؤسسات الماعون .
* مؤسسات الإعداد للقوة .

فالجماعة ينبغى أن تحرص من خلال نظمها القانونية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية على تحجيم الفتنة لدى الأفراد فى مواقعهم فى الحياة .

إنك أحيانًا تواجهك قوانين تضطرك اضطرارًا أن تتفلت منها ، بحيث يصبح هناك شرعان : شرع حكومى وشرع عرفى .

وأحيانًا يحيط بك نظام اجتماعى يفتن الناس فى دينهم مثل الأعراف السائدة فى قضية الزواج والمهور .

وكذلك يواجهك نظام سياسى لا يسمح بفرجة إصلاحية أو حتى ما يسمونه هامشًا إصلاحيًا فيضطرك الأمر اضطرارًا لقبول الفتنة السياسية .

وانظر - رحمك الله - إلى فتنة الأجور فى النظم الحكومية . موظف له سلطات مالية فى حدود الملايين ، ثم إنه غير قادر على أن يفى بالحاجيات فضلاً عن الضروريات . . هذا الموظف قادر على أن يبيع قراره المالى ليحقق لنفسه حاجياته . . وما إنْ يفعل حتى يزين له الشيطان أن يسعى لتحقيق الضروريات ثم يظل معه ليحقق التحسينات ثم يعلمه بعد ذلك الاكتناز تحت وهم المستقبليات ، له ولأبنائه ولأحفاده وأحفاد أحفاده حتى باب جهنم والعياذ بالله . .

من الذى وضعه فى الفتنة أولاً ؟ إنه النظام الذى لا يفى بالحاجيات . ولو أن هذا الموظف أعددته نفسيًا وتربويًا ولم تفتنه فى الحاجيات لاستحال أن يغويه الشيطان إلا قليلاً .

والأصل أن يكون المجتمع صحيحًا معافى وأن يكون المرض هو الشاذ فلا تؤثر الفتنة إلا فى القليل النادر .

كذلك إن أدى النظام الاجتماعى إلى شيوع الفتنة عن طريق الفنون والآداب والسياحة مع عدم القدرة على الزواج فإن ذلك سيؤدى - لا محالة - إلى وقوع الناس فى حبائل الشيطان ، وألفاظ القرآن حاسمة وهى وصف دقيق للمنهج الربانى ، فعندما يقول الله ﴿ولا تقربوا الزنا﴾ يعنى أن تكون كل أنظمتنا مصممة بطريقة تنأى بنا عن الزنا ، ولذلك حرمت الخلوة فى الإسلام ، ولو كنت واعظًا . وربما يقول رجل من غير أولى الإربة من الرجال بأن الخلوة لا تفتنه ، ولكن الأعم الغالب من عامة الناس تفتنهم الخلوة فضلاً عن فحول الرجال .

ونعود إلى قضية الأجور ونقول هنا :- إننا لا نتحدث عن فتنة الرجال فحسب ، وإنما نتحدث عن ضياع الأعمال والمصالح وتخريبها وتفشى الرشوة بحيث يصبح ما حاولنا أن ندخره من أجور الرجال لا يقارن على الإطلاق بما ضيعناه من عمل ومن مصالح من خلال الرشوة والفساد .

عَهِدت إلى كلية الهندسة جامعة القاهرة بعمل دراسة عن المعيدين والمدرسين المساعدين من أجل رؤية كيفية النهوض بهم على الإقلاع عن الدروس الخصوصية والانتباه للعمل الجامعى . فلما اقترحت أولاً أن نحقق لهم - بطريقة أو بأخرى - حاجياتهم وأنه ليس هناك حل سحرى أو حل قهرى وإنما يبدأ الحل من منطلق العدالة . فلما اقترحت ذلك أهملت الدراسة وقيل هذا نظام الدولة ونريد حلاً فى إطار هذا النظام . وللأسف هذا ليس نظامًا إنما هو تخريب الدولة .

قلنا :- إن إحدى واجبات الجماعة هو إنشاء مؤسسات الحض على إطعام المساكين ومؤسسات الماعون .

إن سورة واحدة من سور القرآن تشتمل هذا الواجب وتجعل غياب القيام به هو غياب الدين نفسه :

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧) ﴾ [سورة الماعون] .

إن الحض على طعام المسكين وتقديم الماعون هى مهمة المسلم المؤمن الإعمارية ، ومن أجل ذلك لابد أن يكون بالضرورة عندنا طعام يطعم وماعون يقدم ، وإلا ففاقد الشيء لا يعطيه .

والمجتمع الذى يفتقر إلى هذه القوى الحضية التعاونية سوف ينهار ، لا محالة من داخله ، ذلك أن المجتمعات تحتاج إلى قوى تماسكية تمسك به ، والمجتمع المسلم يستخدم قوى كثيرة لهذا التماسك أهمها قوى الحض والماعون .

والحض يمكن أن يكون فرديًا بأن تحض نفسك ولكن ليؤتى الأمر أكله لابد من قيام مؤسسات حضارية تقوم على هذا الأمر ، وهى بطبيعة الحال مؤسسات تنموية توفر فرص العمل الكريم للناس ، فرص عمل حقيقية تؤدى إلى إعمار حقيقى . ولقد سبق فى مستهل هذا البحث أن تحدثنا عن التنمية وأشرنا على القارئ أن يعود إلي بحثنا حولها فى كتابنا « مقدمات جديدة فى مشاريع البعث الحضارى » ولابد أن نشير هنا إلى قضية - طالما ذكرنا بها الناس - تتعلق بدور الدولة ودور الجماعات والأفراد .

فى وهمنا الحديث أصبحت الدولة إلهًا من دون الله حيث أشركنا بالله من خلالها . . فالناس ترى الدولة كل شىء ، والدولة المتخلفة فرحت بهذا الشرك لأسباب أمنية وطاغوتية واستمر الحال هكذا فأصبحنا فى وضع عجيب من الخيبة والتخلف .

ولقد آن لنا أن ننسى هذا الوهم ونحجم دور الدولة ، وذلك بأن تنطلق الأفراد وتنطلق الجماعات إلى البذل والعطاء حتى نخرج من قاع الجُب اللعين . . كل ذى سعة من سعته . . على تنمية مواردنا الحقيقية . . وليتصل الأثرياء المخلصون بالعلماء المجتهدين ليكونوا الحلقات المرجوة لنهضة الأمة وليوقف الأثرياء من أموالهم والعلماء من علمهم والحرفيون من مهاراتهم وأهل الفنون والآداب من فنونهم وآدابهم ولا ينتظر أحد دور الدولة . . إن أعطت فخيرًا وإن منعت فخيرًا .

فى العالم ما يزيد على مائة ألف منظمة خيرية تنفق على أبواب الخير من علوم وتكنولوچيا لا تجد منها فى بلادنا منظمة واحدة . فمعظم منظماتنا الخيرية مشغولة بدفن الموتى أو بأشكال تافهة من النشاط الاجتماعى المظهرى .

إن الوقف الخيرى على التنمية فرض عين على القادرين . ولقد دعوت إلى إنشاء منظمة لتنمية الابتكارات فى العالم الإسلامى وتبناها اتحاد المنظمات الهندسية الإسلامية ومضيت أدعو لها بعض المؤسسات والأفراد فلم أجد إلا تثاؤبًا وكأن الأمر لا يعنى أحدًا . إن هذه المؤسسة لو قامت لأصبحت أهم آلية من آليات التقدم التقنى ولا تحتاج لقيامها إلا إلى جهد رجل حضارى محسن ، ولا نريد لأنفسنا من الأمر شيئاً ، بل سنكون سعداء إن قام عليه غيرنا .

وبعد فأحسبنى قد ألقيت بعض الضوء على بعض الأولويات الحضارية على مستوى الفرد وعلى مستوى الدولة ، وعلى مستوى الجماعة فى خدمة منظومة التنمية التى هى حجر الأساس فى تجديد حياتنا الحضارية .

وبعد : ◆

فلقد حاولنا فى هذه الدراسة أن نفهم الحضارة كعنصرين متكاملين ، عالم الروح وعالم التمدين ، ورأينا أن عالم الروح وهو مجموع العقائد والقيم المستكنة فى أفئدة مجموعة من الرجال القدوة هو الذى يعطى للتمدين خصوصيته ويجعل له بصمته ، ولقد درسنا ديناميكية التفاعل بين عالم الروح وعالم التمدين ، ورأينا أن عالم الروح يضعف عندما ينمو التمدين إلا إذا انتبه أصحاب الحضارة وجددوا من حضارتهم بتقوية عالم الروح وبثه فى صدور شباب الأمة حتى تولد الحضارة من جديد ، تولد كل يوم عن طريق الرواد الدائمين الذين أمرهم ربهم أن يتفرغوا لهذه المهمة الحضارية .

﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾

ثم قدمنا مفاهيم الإسلام فى التفاعل الحضارى (وليس التصادم الحضارى الذى يدعو إليه الغرب اليوم) ، كما أفردنا فصلاً لقضية التنمية ودور الدولة والفرد والجماعة فى التجديد الحضارى .

وبعد فإنى أدعو الله أن أكون قد وفقت للتى هى أقوم .

وعلى الله قصد السبيل ، ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين .

ملحق

مراجعات فى دور الشورى فى التجديد الحضارى

اقتراح لهيكل شورى تشريعى فى الدولة

«نموذج لمنهج تفكير إسلامى»

فى العشرين سنة الأخيرة هوت مجموعة من النظم فى عالمنا العربى والإسلامى من درك الطغيان والبغى والفساد إلى درك الفوضى والمجهول والتحديات الداخلية والخارجية التى تنوء بحملها الجبال .

فى إيران والجزائر والصومال والسودان وأفغانستان . . ظلت الأمور تتفاقم فى ظل قيادة مستبدة طاغية ، ومن تحتها ظل السوس ينخر فى عظام الأمة ، بينما تزخرف آلة الإعلام الجبارة صورة وردية للحياة فيبدو الفساد صلاحًا ويبدو الطغيان عدلاً ويبدو الاستبداد شورى ويبدو الجوع والعطش شبعًا وريًا . حتى إذا اطمأن أصحاب النظام الدولى إلى ما حققه السوس فى جسد الأمة رفعوا أيديهم التى تمسك العروش أن تقع لتنهار وتتبدد . . تركوها تنهار فى ثوان من عمر الزمن ، ولتسجل فى علوم الحضارة ظاهرة جديدة لم يكن لنا بها من عهد وهى ظاهرة «الانهيار الكارثى» أو (Catastrophic collapse) والتى تصف كيف يتعاون المجرمون فى الداخل والخارج على إظهار نظام بالقوة والبأس والعدل والرخاء والإستقرار بينما باطنه يمتلئ بالسوس ينخر فى عظامه ، ويظلون ممسكين بعرشه أن ينهار على قواعده لفترة تبدو لهم كافية أن يقع المجتمع ولا يقوم بعدها أبدًا ، وحينئذ يرفعون أيديهم عن حمايته ويتركونه نهبًا للضياع وعدم الاستقرار . . أو هكذا على الأقل يظنون .

ويصف القرآن هذه الظاهرة فى آية محكمة :

﴿وكم من قـرية أهلكناها وهى ظالمة . . فـهى خـاوية على عروشها . . وبئر معطلة وقصر مشيد﴾

أى أن القـرية - وقـد خـوت على عـروشـهـا - فـقـدت قـدرتهـا الإنتاجية بفعل فاعل « بئر معطلة » وما بقى لها إلا زخرفة ظاهرة « قصر مشيد » .

فى إيران أسلمنا نظام الشاه المستبد الفاسد إلى حكم طائفة الملالى . .

فى الجزائر أسلمنا نظام بومدين المستبد المنغلق إلى فوضى لا يعرف إلا الله متى تنتهى . .

فى الصومال أسلمنا نظام سياد برى المستبد الفاسد إلى ما آلت إليه الأمور من ظهور القبلية القاتلة . .

فى السودان أسلمنا نظام النميرى المستبد الفاسد - فى النهاية - إلى انفراد الجيش والجبهة الإسلامية بالحكم ليضع السودان مرة أخرى فى أتون حرب لا قبل له بها مع قوى الخارج والداخل . .

فى أفغانستان أسلمنا النظام الملكى الفاسد إلى نظام شيوعى أفسد ليسلمنا فى النهاية لفوضى ليست لها مثيل .

وفى كل هذه الأحوال تبدو ظاهرة « الانهيار الكارثى » خير تفسير لما يحدث . وأهم خاصية تميزت بها كل الدول التى أدركها طوفان الانهيار الكارثى هى « الفساد المركب » . وكأن القرآن يشير إلى هذا الفساد المركب بقوله :

﴿وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون﴾

هل يكون هؤلاء المفسدون هم :

* رهط الفساد الاجتماعى . * رهط الفساد التعليمى .
* رهط الفساد التنموى . * رهط الفساد السياسى .
* رهط الفساد التشريعى . * رهط الفساد القضائى .
* رهط الفساد الأمنى . * رهط الفساد الإعلامى .
* رهط الفساد البيئى .

ولن يتمكن الفساد من أمة إلا بذراع الاستبداد وغياب النظم الشورية فى الأمة أو تزييفها لتصبح قصرًا مشيدًا من الخارج ومن داخلها خاوية على عروشها . كل الآثام ترتكب فى ظل الاستبداد . وفى ظل نظام عالمى مستبد لا تصدقوا أن هناك مستبداً وطنياً . . كل المستبدين خونة . ذلك أنهم بمجرد أن اختاروا طريق الاستبداد يكونون قد اختاروا طريق التبعية لأنفسهم ولأمتهم . فالمستبد فى دولة عظمى عنده فسحة للوطنية ، أما المستبد فى دولة مقهورة ضعيفة ليست عنده أى فسحة وطنية للاستبداد . . بمجرد اختياره للاستبداد فقد اختار التبعية والخيانة .

لذلك ظلت قضية الشورى تشغلنى طول حياتى . وأذكر أننى التقيت بمولانا أبو الأعلى المودودى عام ١٩٦٧ واستضفته فى بيتى ثلاثة أيام . وقلت له بينى وبينك ثلاث قضايا . . إما أن تقنعنى وإما أن أقنعك . قال هاتها . قلت : رأيك فى قضية المرأة ، ورأيك فى الناسخ والمنسوخ ، ورأيك فى الشورى . وكان الأستاذ المودودى

يرى فى أول حياته العلمية إن الشورى غير ملزمة . قال رحمه الله أن قضية الشورى قد تغيرت بالنسبة له وإنه الآن يراها شديدة الوجوب وإنه غير رأيه فى كتاباته اللاحقة . وعلى كل حال ليست الشورى - كقيمة إسلامية - هى المشكلة وإنما ظل السؤال:

هل يمكن أن نبدع نظامًا للشورى يرسخ وجودها فى الحياة كلها بدءاً من الفرد وإنتهاءاً بالحكومة؟ وبالطبع سيكون لكل مجتمع أن يبدع حسب ظروفه الحضارية وليس هناك نظام واحد لها . المهم أن الشورى وهى فى الإسلام من قيمه الأخلاقية . . تظل كالصلاة والزكاة فى قلب كل مسلم يؤمن بيوم الحساب .

ولعلى فى ختام هذا النذير أقول :-

إن كثيرًا من دولنا العربية والإسلامية ليست بمفازة من هذا الانهيار الكارثى ، وإنه إذا لم تدركنا عناية الله فتتوب نظم كثيرة عن استبدادها وفسادها فإن الكارثة آتية لا ريب فيها ، والمصلحون الذين يوجهون الأمة إلى قضايا إصلاحية هامشية ينبغى أن يركزوا فى هذه الآونة على قضية أساسية هى الإصلاح الشورى . . فكل كسب فى هذا الاتجاه هو كسب فى كل الاتجاهات . وكل مؤمن بالله فى أوطاننا ينبغى أن يضع فى السويداء من قلبه قضية الإصلاح الشورى فى رأس القائمة . . فإن الاستبداد يورث الكفر . . ليس فقط لمن استبد ولكن أيضًا لمن استبد بهم .

وما أريد إلا الإصلاح ما استطعت . .

مقدمة :

يرتبط الهيكل التنظيمى الشورى بطبيعة الحكومة وطبيعة النظام التنموى فى الأمة من حيث :

هل النظام التنموى نظام مركزى بحيث تقوم الدولة على كل شىء ابتداءً من التعليم إلى الصحة إلى الإسكان وانتهاءً بالقضاء والبوليس والجيش ؟

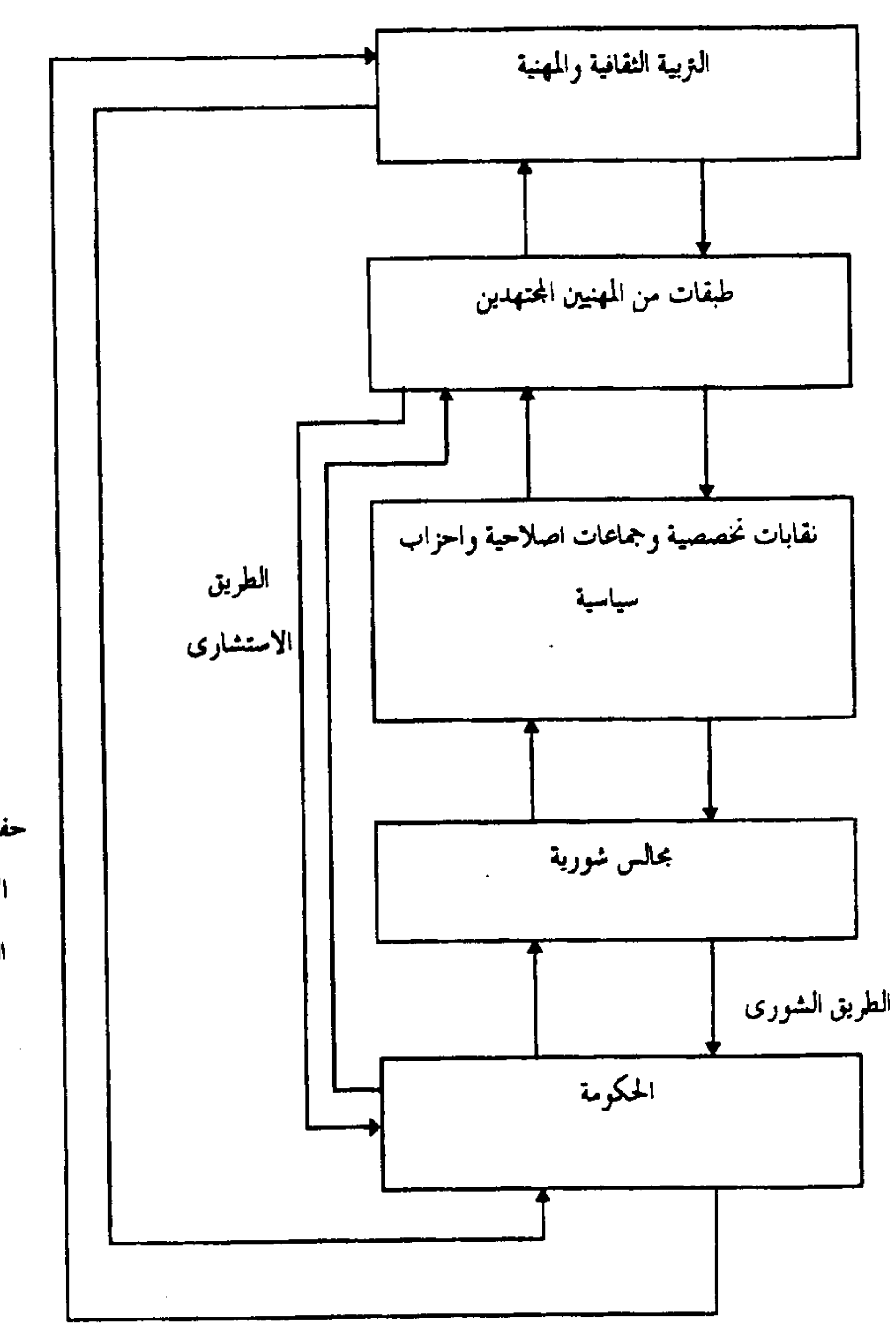
أم أنه نظام لا مركزى يترك الأمة تتفاعل مع بيئتها وتصمم منظومتها التنموية ، ويقوم النظام فقط بقضية الأمن العام داخليًا وخارجيًا ؟

أم أنه نظام بين الاثنين ؟ على كل حال ينبغى أن يكون النظام مركزيًا لدرجة لا تسمح بالانهيار الأمنى الداخلى والخارجى . ولكن لا تكون مركزيته لدرجة تخنق الحياة المادية والروحية للأمة . وفى تاريخنا الإسلامى كان نظام الحكم أقرب إلى اللامركزية ، حيث تقوم الدولة فقط بالحفاظ على الأمن الخارجى والداخلى بينما تميز النظام التنموى باللامركزية .

والظروف الدولية تلقى بظلالها فى تحديد طبيعة الحكومات المناسبة لعصرها ودرجة مركزيتها .

وفى ظل ظروفنا الراهنة نطرح تصورًا للعلاقات الهيكلية التى تعظم دور الشورى فى الأمة ، نطرح ذلك ونحن مدركون أن هذه وجهة نظر تحتاج إلى نظر مستمر للتصحيح والملاءمة مع الظروف المتغيرة ، سواء فى الداخل أو فى الخارج .

الهيكل المقترح :



لقد لخصنا الهيكل المقترح فى شكل هندسى . . متأثرين بطرائق أهل الهندسة فى الشرح والتوضيح ، وشرحنا الوشائج بين الجهات المختلفة بخطوط آتية وذاهبة لتمثل التفاعل بينها .

وليلحظ القارئ أن المقياس الذى اتخذناه لقياس أداء الأمة ، حكومة وشعبًا ، يتبلور فى تعظيم الحفاظ على السكينة الاجتماعية والحفاظ على القيم الخالدة التى جاءتنا وحيًا . والسكينة الاجتماعية لن تتحقق فى الأمة ، حكومة وشعبًا ، إلا من خلال العدل والإحسان في الأمر كله . . ومن خلف ذلك كله نظام شورى يطمئن إليه الناس ويضمن لهم حق المشاركة الفعالة فى كل ما يتعلق بدنياهم .

والهيكل المقترح يتألف من سبع خطوات . . هى كالآتى :

١ - مؤسسات التربية المهنية تفرز طبقات من المهنيين والمجتهدين ، وهى مؤسسات رسمية وتطوعية تحتاج إلى تصميم وتخطيط ومتابعة .

٢ - طبقات المجتهدين ،طبقات حرة من العلماء المتخصصين يطرحون اجتهادات فى تخصصاتهم المختلفة مبرهنين أنها اجتهادات تنبع من عالم القيم الإسلامية . . هذه القيم التى تصدر عن تصور راشد للقرآن والسنة .

٣ - هؤلاء المجتهدون مجتمعون فى مؤسساتهم المهنية سواء كانت نقابات أم مراكز بحوث أم جماعات إصلاحية أم أحزاب

سياسية ، حيث تتم الغربلة الأساسية لهذه الاجتهادات وتتبناها جهاتهم الشعبية ، حيث تضغط هذه الجهات الشعبية على المجالس الشورية لتبنى هذه الاجتهادات .

٤ - تلزم المجالس الشورية الحكومة بأحد هذه الاجتهادات المطروحة .

٥ - توضح الحكومة للمجالس الشورية المحددات والضوابط الدولية والتى ربما فاتت على المجتهدين فى النقابات أو على أعضاء المجالس الشورية الذين اختاروا اجتهادًا من هذه الاجتهادات .. توضح هذه المحددات حتى يعيد المجتهدون اجتهادهم فكل واقع جديد له اجتهاد مغاير .

٦ - كذلك تطلب الحكومة من المجالس الشورية إعادة النظر فى بعض القوانين التى ربما أثبتت التجربة عدم توفيقها أو تطلب منها النظر فى أمور مستحدثة وتوجهات حياتية جديدة .

٧ - تطرح المجالس الشورية الأمر على النقابات والهيئات ليجتهد مجتهدوها فى حرية تامة فى ظل ما استقر فى أفئدتهم من قيم وفى ظل تجاربهم الفقهية والمهنية .

ملاحظة (١) : أمران هامان :◆

الأول: إن المجالس الشورية لا تجتهد ، وإنما تختار من اجتهادات قائمة قدمتها لها النقابات والهيئات الشعبية المختلفة لتحقق - ما استطاعت - التناغم بين المحددات والضوابط التى تجد الحكومة

نفسها فى داخلها وهذا هو رأى فقيهنا العظيم الدكتور توفيق الشاوى .

الثانى : إن الحكومة ملتزمة التزامًا كليًا بالاجتهاد الذى اختارته المجالس الشورية ، فإذا رأت أنه يصعب عليها الالتزام باجتهادٍ ما نتيجة قصور هذا الاجتهاد أعادت الأمر للمجالس الشورية ، والمجالس الشورية تعيده بدورها إلى الأمة ممثلة فى نقاباتها وهيئاتها المدنية .

ملاحظة (٢) :

هناك فرق بين الشورى والاستشارة . . هكذا نبهنا الدكتور الشاوى فى كتابه القيم « فقه الشورى والاستشارة » . ومن حق الحكومة أن تستشير من تشاء ومن حقها أيضًا أن تلتزم برأى من تستشير أو لا تلتزم ، ولكن من واجبها أن تلتزم بالشورى . فالشورى ملزمة والاستشارة اختيارية الالتزام .

ملاحظة (٣) :

لكى يعمل هذا الهيكل التنظيمى بكفاءة عالية لابد أن نحسن إعداد مكوناته مكونًا مكونًا وإلا فستصبح المنظومة خاوية على عروشها . . فبئر معطلة وقصر مشيد .

المكون الأول : التربية الثقافية والمهنية ، ويقوم عليها النظام التعليمى والنظام الإعلامى وكذلك الجماعات الثقافية والتربوية وكذلك الأحزاب السياسية والجماعات الإصلاحية . وعلى

الدولة أن تتأكد من صلاحية المناهج التربوية والثقافية فى كل هذه الأنشطة فى ظل ثوابت الأمة .

المكون الثانى : إعلاء شأن البحوث فى الدولة حتى تتكون لدينا كوادر من المجتهدين ، خاصة المجالات التى تتحدث عن التفاعل بين المهن المختلفة والقيم السائدة والقيم المرجوة وأحوال المجتمع العامة .

المكون الثالث: النقابات والتجمعات السياسية والإصلاحية . الدولة ليست مجموعة من أفراد وإنما هي مجموعة من التكتلات الوظيفية المتكاملة . والحكومة التى تستغل أجهزة الدولة لتضرب النقابات والتجمعات السياسية والإصلاحية لتنفرد هى بالسلطة هي حكومة خائنة لأماناتها ، لأنها بذلك تقطع طريق الشورى الحقيقية وتزيف إرادة الأمة ، وسيؤدى فعلها هذا - إذا لم يستدرك - إلى خراب أكيد فى المدي القريب والبعيد .

المكون الرابع: المجالس الشورية : ما هى الطريقة المثلى لاختيار رجال قادرين على إسداء المشورة للدولة ، وقادرين على أن يختاروا من الاجتهادات القائمة الاجتهاد المناسب ، وقادرين على أن يحملوا الحكومة عليه ويحاسبوها إن أخفقت ؟!

الطريقة المصرية هذه الأيام طريقة فاشلة وتحتاج إلي أفكار جديدة فلماذا - مثلاً - لا تمثل النقابات ونوادى الهيئات المختلفة بنسب معقولة نضمن بها وجودًا مهنيًا معقولاً . ويأتى هؤلاء من

نقاباتهم ونواديهم بطريقة شورية وليس تعييناً ، بل يمكن أن نضم - أيضًا - لهؤلاء بعض الطوائف التى لا يمكن أن تأتى بالاقتراع العام ، ويأتون بطريقة شورية من طوائفهم بدلاً من التعيين .

القيم التى استلهمناها فى وضع هذا التصور الهيكلى للنظام الشورى:◆

نؤكد دائمًا أن الإسلام بمصدريه ، القرآن والسنة ، جاءنا بالقيم والمحددات والضوابط التى يمكن أن نصمم على أساسها أى نظام حياتى . ولكن الإسلام لم يفرض علينا نظامًا . . هذه مهمتنا نحن . . نأخذ القيم والمحددات والضوابط ونخلطها بالظروف الحضارية التى تحيط بنا ، ونستخدم ذلك كله فى تصميم منظوماتنا الحياتية . . ويمكن بالطبع أن نسترشد بالأمثلة المحلولة فى تاريخنا الحضارى ، بل يجب أن نفعل ذلك مدركين أن الحلول التاريخية هى محاولة المسلمين لتحقيق قيمهم ومحدداتهم وضوابطهم فى بناء نظم تناسب حالتهم الحضارية .

ومن هنا فإن من يقول بأن الإسلام لم يفرض علينا نظمًا حياتية نستخدمها ليوم القيامة صادق فيما يقول ، ولكنه لابد أن يكمل :- إن « القيم والمحددات والضوابط » التى تفرضها علينا مصادر الإسلام (القرآن والسنة) لابد أن تستلهم فى وضع أى نظام حياتى . وعندما نستلهمها فى تصميم نظمنا سوف يثمر هذا التصميم ثمرة حياتية ، لها مذاقها الخاص مغايرة لثمرات قيم أخرى ومحددات وضوابط أخرى . وبقدر نجاحنا فى تحقيق القيم

والمحددات والضوابط الإسلامية فى تصميم نظمنا الحياتية كلما اقتربت هذه النظم من الصراط المستقيم .. الذى ندعوا الله آناء الليل وأطراف النهار أن يهدينا إليه .. « اهدنا الصراط المستقيم » . بالطبع سنسمى ما نصممه محاولات إسلامية .. بمعنى أن البنية التحتية عقيدة وقيمًا ومحددات وضوابط هى البنية الإسلامية .

وبالطبع يمكن أن تكون هذه المحاولات محاولات فاشلة نتيجة الجهل أو الهوى ، من ثم ينبغى أن لا نصف هذه المحاولات بأنها الإسلام نفسه ، فمن حاربها كأنما يحارب الإسلام . وإنما هى محاولات نظل نعود إليها بالتغيير والتبديل والتحسين فى عملية استغفارية دائمة إلى يوم الدين . ولأننا لن نزعم أن هذا هو الكمال الإسلامى ، فإنه يمكن أن نسمى المحاولات المختلفة بأسماء أصحابها أو بأسماء الأحزاب التى تبنتها . فنقول مثلاً عن النظام السياسى فى مصر الآن نظام الحزب الوطنى أو نقول عن النظام السياسى فى السودان نظام الجبهة الإسلامية وعن النظام السياسى فى إيران نظام الخومينى . ومن ثم لا نضع على الإسلام أوزارنا وإنما نحملها نحن فوق أكتافنا .. نحن المحسنون أو نحن المسيئون .

وقبل أن نفرغ من هذه الملاحظات ، لابد أن نشير إلى أن تحديد مجموعة القيم والمحددات والضوابط فى مجال ما هو أمر علمى بحت يحتاج إلى علماء يعرفون كيف يستخرجون من القرآن والسنة هذه القيم وتلك المحددات والضوابط ، فهم علماء فى

تخصصهم أولاً يعرفون علوم القرآن ولغته ومن ثم يملكون أدوات الغوص لاستخراج الدرر القيّمة المنبثة فى أرجاء كتاب الله . . منثورة فى قصة قرآنية أو فى مثل قرآنى أو فى نص صريح . المهم أن هذه مهمة دائمة إلى يوم الدين ، لا نقول قد فرغ منها الأوائل وانتهى الأمر ، وإلا فما معنى قوله تعالى :

﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً﴾

وما كلمات الله إلا القيم والمعانى والتوجيهات المتدثرة بآيات الذكر الحكيم .

وأعود إلى السؤال :◆

ما هذه القيم التى استلهمناها ونحن نضع هذا التخطيط المبدئى لنظامٍ شورى ؟

لعلى ألخص هذا فى النقاط التالية :

الشورى :

هى فى الإسلام قيمة أخلاقية وليست فقط وسيلة سياسية . والقرآن يقول :

﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) ﴾ [الشورى : ٣٨]

فكأنها مكنونة بين الصلاة والزكاة فى استجابة المؤمن لربه .

وهذه سورة مكية . أى أن الشورى واجبة على المسلم فى مجتمعه سواء كانت هناك دولة أم لم تكن .

إنها فى الإسلام فضيلة خلقية يتحلى بها الفرد والمجتمع والدولة . وقد يكون رأى الفرد فى بعض الأحيان خيرًا من رأى الجماعة ولكن القرآن يقرر أنه مهما كانت نتائج الشورى فإنها ملزمة للجماعة المسلمة ، وما حدث فى غزوة أحد معروف والقرآن يسجله فى آيات محكمات :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) ﴾ [آل عمران : ١٥٩]

والإسلام يعلمنا - أيضًا - أنه لا شورى بدون حرية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فالعبيد لا يستطيعون أن يقدموا مشورة ، والدول التى تجمع فى برلماناتها عبيد الطمع فى هذه الحياة الدنيا وتتخذهم ديكورًا لدكتاتوريتها دول هالكة لا محالة . والحضارة المادية فى الغرب والشرق سواء ، ولكن للغرب نصيب من الشورى يمسك بالحضارة أن تنهار بينما غيابها فى بلد كروسيا أهوى بها إلى الدرك الأسفل من هذه الحياة الدنيا .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو أعظم خصوصية حضارية لأمة الوسط . . أمة الإسلام من لدن آدم حتى اليوم . والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يحتاج إلى تمكين فى الأرض . والتمكين

فى الأرض يعنى أمورًا كثيرة . . منها : العلم - الحكمة - المكانة - التكافؤ النفسى والفكرى بين أطراف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر له مستويات مختلفة ويحتاج إلى معلومات واضحة . فربما كانت الدولة تطبخ أمرًا فى الغرفات المغلقة ولا يظهر منه للناس إلا القليل . حينئذ سيكون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بعيدًا عن الصواب وقائمًا على الظنون والأوهام . ولذلك ينبغى على المتصدين للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى مثل هذه الحالات المعماة أن يضعوا نصائحهم فى جمل شرطية : «لو كان كذا فينبغى أن يكون كذا» . وينبغى على الدولة - إن أرادت أن تستفيد من نصائح الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - أن تضع بين الناس المعلومات الصحيحة الكاملة .

وقبل أن نأمر الناس بالمعروف وننهاهم عن المنكر لابد للأمة جميعًا أن تتفق على ما هو «المعروف» وما هو «المنكر» . أعلم أن ذلك واضح فى عالم الأخلاق ولكنه ربما يكون غائمًا فى عالم التنمية والسياسة . ومن ثم ففى لحظة تاريخية حضارية معينة لابد أن تتفق الأمة جميعًا على ما هو المعروف ؟ وما هو المنكر حتى إذا حاد البعض فى مواقعهم المختلفة عن المعروف ووقعوا فى المنكر وجدوا من يأمروهم بالعودة إلى المعروف ؟ والإقلاع عن المنكر .

وكلما اتضحت خريطة المعروف وخريطة المنكر وارتكنت إلى أساس من عقيدة الناس كلما سهل أمر القائمين على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكلما أصبح أكثر يسرًا يكفى فيه التذكير

الخفيض واللمحة المستخفية . وكل إمرىء له خريطة أمر بمعروف ونهى عن منكر فى دائرة تمكينه . وكل جماعة إنسانية لها خريطة أمر بمعروف ونهى عن منكر فى دائرة تمكينها . والذى يأمر بمعروف وينهى عن منكر فى غير دائرة تمكينه ربما يؤدى إلى ضرر أكبر لنفسه ولأمته .

والأمة المسلمة تتفق فى معروفها وفى منكرها ، وتختلف بذلك عن أمم أخرى تعايشها نفس الزمان . وبالطبع - فى لحظة تاريخية معينة - تتفق الأمة المسلمة مع بقية الأمم على خريطة مشتركة للمعروف والمنكر لتمثل هذه الخريطة مرجعية لنظام دولى سائد فى هذه اللحظة التاريخية . والمجتمع المسلم تعيش فى داخله أقليات مختلفة يتفقون معًا على خريطة للمعروف والمنكر تمثل المرجعية الأساسية لمفهوم المواطنة .

قيمة الجماعة و العمل الجماعى :◆

الأمة فى سعيها الحضارى ليست مجموعة من الأفراد تسحقهم السلطات المركزية . ولكنها مجموعة من التكتلات الحضارية تتمايز فى وظائفها وطبائعها ، وتتكامل فى أهدافها . فهناك تكتلات المهنيين المختلفة والتكتلات القبلية المختلفة والتكتلات السياسية المختلفة والتكتلات التنموية المختلفة . والقرآن يلخص ذلك بقول الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾ [الحجرات : ١٣]

أى إن التقوى هى معيار الفلاح لأى تقسيم حضارى فى الأمة . والإسلام لم يطلب من القبائل العربية أن تلغى قبليتها ليصبحوا بلا انتماء قبلى ؛ ولكنه هذب هذه القبلية وجعل قوة العصبية فيها لصالح الخير العام . وفى الفتوحات كانت كل قبيلة تحارب تحت رايتها فى تنافس على الشهادة والعطاء فى سبيل الله .

والدولة الحديثة دولة شديدة البأس بما احتوت من أجهزة أمنية وأجهزة خدمية وأجهزة إعلامية وأجهزة اقتصادية ، وبما أتاح لها العصر من قدرة على الاتصال السريع والهيمنة الفائقة . وإذا أصبح الناس فى مواجهة هذه الدولة أفرادًا متناثرين فإن أى مجموعة تصل إلى الحكم طوعًا أو كرهًا سرعان ما تتصرف بجبروت وطغيان وسرعان ما تتفرعن وتذل العباد والبلاد .

وفى بلد كمصر - ذابت فيه القبائل العرقية - ينبغى أن يحرص المجتمع على القبائل المهنية كالنقابات والنوادى المهنية ، وعلى التعددية السياسية فى شكل أحزاب سياسية ومدارس فكرية . وتأثم الدولة إثمًا كبيرًا إذا عملت على تحطيم هذه التكونات الحضارية أو تعطيلها أو العمل على تفريغها من محتواها الحضارى من أجل كسب سياسى للطبقة الحاكمة تزداد به طغيانًا كفورًا . أعظ القارئ أن يعود إلى كتاب فقيهنا السياسى المستشار طارق البشرى « الملامح العامة للفكر السياسى الإسلامى فى التاريخ المعاصر » حيث يؤكد ما تبنيناه من أن هذه التكوينات المتعددة (بجانب كونها أداة تنموية فعالة) كانت كذلك حاجزًا أمام استبداد الحكام أو سيطرة الأجانب ، وأن الإصلاحات المؤسسية

فى أواخر الدولة العثمانية - وما تفكك عنها من دول - أدت فى النهاية إلى استبداد الحكام، وسهلت مهمة الأجانب فى السيطرة على البلاد .

مسئولية الفرد والجماعة فى اختيار الولاة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) ﴾ [النساء : ٥٨]

وأهل العلم يقسمون الأمانات إلى قسمين : قسم يتعلق بالأموال وقسم يتعلق بالولايات .

ويشترط فى الولايات شرطين : القوة والأمانة . . والقوة المطلوبة لكل ولاية بحسبها . . فقوة قائد الجند غير قوة القاضى غير قوة الطبيب والمهندس . ومتطلبات هذه القوة تختلف من عصر إلى عصر ومن وظيفة إلى وظيفة ومن مجتمع إلى مجتمع .

وتوصيف هذه القوة من أعمال المجتمع . وفى الغرب يوصفون الأعمال ويوصفون معها المهارات المطلوبة والمتطلبات الذهنية والجسدية والقدرات النفسية والعقلية . ولقد لخصت ابنة شعيب عليه السلام لأبيها هذه الشروط فى وصفها لموسى عليه السلام :

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (٢٦) ﴾ [القصص : ٢٦]

وهناك أحاديث كثيرة تنأى بالمسلم أن يتقدم لعمل أو ولاية وهو يعلم أن بين الناس من هو أقدر منه على حمل أماناتها . . وكل مجلس يتم اختيار أعضائه بالانتخاب إنما يضع الناخبين فى موقف الشهادة . . والشهادة لها شروطها عند أهل العلم . . وأهم شروطها العلم والتقوى . والعلم هنا يعنى معرفة قدرات الرجل الذى اشترك فى انتخابه لمهمة بعينها . . هل يصلح لها ؟ . . أم أن آخر أصلح لها ؟

أنا هنا لا أتكلم عن دولة استبدت بالسلطة وأبقت هياكل تمويهية سنتها مجالس شورية ، فهؤلاء ليسوا فقط شاهدى زور ولكنهم لصوص إرادة الأمة وقاتليها . . إنهم أكابر مجرميها . . وأعوذ بالله أن تكون حكومتنا منهم . وإنما أتكلم عن شعب وحكومة يريدون الإصلاح ما استطاعوا ، ويخشون ربهم ويخافون يوم الحساب .

والطريقة التى يتم بها اختيار أعضاء المجالس الشورية ربما تكون معنتة للناس لا يستطيعون من خلالها تقييمًا راشدًا للمتنافسين على مقعد هنا أو مقعد هناك . ولعل الطريقة المثلى فى تصورنا هى طريقة اختيار أهل الحل والعقد عن طريق نقاباتهم وطوائفهم المختلفة ، فللمهندسين نسبة يختاروها فى نقابتهم ، وللأطباء نسبة يختاروها فى نقابتهم ، وهكذا من المهنيين إلى القبائل العرقية والقبائل الطائفية المختلفة . وربما تركت نسبة عامة تنتخب من الشارع العام .

مرة أخرى فكرة العمل من خلال التقسيمات المتنافسة فى الخير . . تقسيمات تختلف فى الوظائف وتتكامل فى العمل العام .

فإذا تكون مجلس نيابى بهذه الطريقة الشورية التى تأتى بأهل الذكر ليكونوا هم أهل الحل والعقد فإن اختيار رئيس الدولة يصبح أمرًا سهلاً . فأهل الحل والعقد فى برلمان الأمة يضعون شروط هذه الإمامة من حيث المواصفات الشخصية الفكرية والصحية ومن حيث الاستقامة العامة ومن حيث الخبرات المتراكمة ومن حيث المكانة القومية . . ويضعون ذلك بتفصيل معقول . فإذا تقدم أكثر من مرشح يحققون هذه الشروط فإنهم يتركون الأمر للأمة تختار منهم من تريد . وعند كل اختيار يقف المرء فى موقف الشهادة بكل ثقلها ومسئولياتها أمام الله ، وعليه أن يختار بين الجنة والنار .
وما نقترحه يُعظم « غلبة » مجموع الأمة على « غلبة » جماعات القوى الظاهرة والباطنة ، ويستبدل « عصبية » العائلة والقبيلة بشبكة من العصبيات الوطنية يؤازر بعضها بعضًا . ذلك حتى لانقع فيما وقعنا فيه تاريخيًا من غلبة الأسر وتكتلات المماليك أو ما وقعت فيه البلاد الغربية من غلبة القوى الاقتصادية وغيرها من القوى الظاهرة أو الباطنة على البلاد والعباد .

آية الملك الصالح :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً

مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨) ﴾

[البقرة: ٢٤٦ - ٢٤٨]

لن نقف طويلاً مع هذه الآيات المحكمات ولا مع بقية القصة العظيمة لهذا الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى فلذلك حديث آخر ، ولكننى أقف مذهولاً أمام هذا الوصف المحكم لخصائص نظام الملك الصالح . . صحيح أننى قرأت هذه الآيات كثيرًا من قبل وترددت رافضًا تلك التفسيرات التوراتية لمعنى التابوت ووقفت شبه مؤيد لما أورده الزمخشرى (فى الأساس) والبيضاوى وابن الأثير والراغب وتاج العروس فيما نقله عنهم جميعًا إمامنا محمد أسد فى ترجمته حيث أضافوا احتمالاً لكلمة التابوت بمعنى « القلب » أو « الصدر » ولكننى أظن أن الأمر يتعلق بتعظيم الحفاظ على أمرين : الأول هو السكينة والثانى هو القيم الخالدة التى جاءت وحيًا (بقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة) .

والتـابوت يمثل أدوات هذا الحـفظ من مناهج وبرامج وخطط فى السياسة والاقتصاد والاجتماع . والقرآن يستخدم كلمة السكينة بمعنى السلام الداخلى الديناميكى وفى سورة الفتح يقول المولى :

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦) ﴾ [الفتح:٢٦]

فالسكينة الاجتماعية هى الضد للحمية الجاهلية التى تجعل الناس أحـزابًا وشـيـعًا يتـقـاتلون على المتاع الزائل فى هذه الحـيـاة الدنيا ، وهذه الحمية الجاهلية هى العنوان الواضح لفساد الحكم :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) ﴾ [القصص: ٤]

من أجل ذلك ينبغى أن تنشأ فى الأمـة جمـاعات إصلاحيـة مهمتها قياس مدى الحفاظ على السكينة الديناميكية فى الأمة وعلى القـيم الثابتـة الربانية ، فإن رأت تضييـعًا لهـمـا أبدعت من النظم التربوية والثقافية والتشريعية ما يعظم حفظهما . . فإن فى حفظًا حفظ للأمة : راعياً ورعّية ، والله أعلم .

الفهرس

